عزيز نيسين

أي حزب سيفوز



ترجمة
فاروق مصطفى

المرساة
نينوى

علي مولا

أي حزب سيفوز ؟

اسم الكتاب : **أي حزب سيفوز**
اسم المؤلف : **عزيز نيسن**
اسم المترجم : **فاروق مصطفى**
عدد الصفحات: ١٨٤
القياس : ١٤,٥ × ٢١,٥
١٠٠٠/ ٢٠١١م - ١٤٣١هـ

© جميع الحقوق محفوظة
Copyright ninawa

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص ب ٤٦٥٠
تلفاكس: ٢٣١٤٥١١ ١١ ٩٦٣ +
هاتف: ٢٣٢٦٩٨٥ ١١ ٩٦٣+

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التصميم الداخلي والتدقيق اللغوي: دار نينوى
إخراج الغلاف: م. سوسن الحلبي

لا يجوز نقل أو اقتباس أو ترجمة، أي جزء من هذا الكتاب، بأية وسيلة كانت دون إذن خطي مسبق من الناشر.

عزيز نسين

أي حزب سيفوز ؟

ترجمة

فاروق مصطفى

الإهداء

إلى درَّة الوفاء..

والرضا الصامت.. الحالم بأيام وردية موعودة، تأخرت كثيراً، ولم تأتِ بعد..

إلى رفيقة المشوار الطويل على درب الظرف الصعب.

إلى الحبيبة، والصديقة الصادقة..

شريكة العمر جنان

وإلى عقد اللؤلؤ المنضود، الأحلى والأغلى،

الذي يزيّن أرجاء بيتي، وأيام حياتي،

ويفتح آفاق آمالٍ عريضة بغدٍ واعد..

ومستقبلٍ زاهر مشرق.

إلى عقدي الخماسي

مايا.. الأحلى.. وتاريخ طويل يحكي حياة الآباء والأجداد،

ريما.. الأجمل، والتزام بالعروبة لا تحدّه حدود.

واسطة العقد زكوان.. زين الفتيان. وذكرى الغوالي أبي وأمي.

وكل الأحبة الذين رحلوا،

وذكريات الصبا والشباب.

نرمين.. الأرق والأنعم، وعهد حب قائم منذ النظرة الأولى،

خاتم العقد عبد الناصر.. محبوبنا.

وألف ألف خاطرة وذكرى عن الماضي القريب،

أيام المدّ العربي، أيام الانتصار العربي.. يتلوه انتصار.

أيُّ خيالات، وأيُّ مشاعر وأحاسيس.

وأيُّ آمال تحرِّكها في نفسي في كل لحظة

يا عبد الناصر؟

ونحن نعيش اليوم هذا الزمن العربي الرديء

حلب في 1995/7/10

فاروق مصطفى

مُقدِّمة

بقلم الدكتور عبد الرزاق عيد

عزيز نسن

طوبوغرافي المجتمع التركي

في إحدى مقابلاته، وفي سياق السؤال عن الهدف الذي يضعه نصب عينيه إذ يجلس للكتابة يقول: «إنني أفكر دائماً في بلدي، وأحاول أن أجعل كتابتي طوبوغرافيا اجتماعية للشعب التركي».

من قبل أطلق بلزاك على نفسه لقب «سكرتير المجتمع الفرنسي» فكان سكرتيراً أميناً لهذا المجتمع، فقدّمه، مثله، وتمثّله، كما لم يتمكن الاقتصادي، والسوسيولوجي، والسياسي، حسب انطباعات انجلز، فقدم بلزاك سفراً مطرزاً بآلام المخاض لمجتمع فرنسي في طور تخلقه الجديد كمجتمع حديث، وأطلق على هذا السفر «الكوميديا الإنسانية».

رغم التهجم، الرصانة المبضع الذي يغوص في الجرح، والعيون الصقرية التي تنفذ عميقاً تحت السطح، لبلوغ مخابئ شيطانية الواقع وخبثه الذي ينتج كل هذه البشاعة، رغم كل هذه الفضاءات المأساوية، فإن بلزاك يرسمها بوصفها «ملهاة». فحسم بذلك الجدل والسجال، حول حدود

الملهاة والمأساة، منذ مأدبة أفلاطون، ومحاجة سقراط «بأن الفنان الحق في المأساة، فنان في الملهاة أيضاً».

ليخلص أبرز نقاد العصر الحديث نورثروب فراي «إلى أن الخط الفاصل بين الملهاة والمأساة تحيل إلى حد أن المأساة ملهاة ضمنية أو غير تامة» وأن المأساة «حادثة في النهج العريض للفناء والبعث منحها دانتي اسم الكوميديا».

فكلاهما ينطوي على الخاصة النوعية المتميزة بهذا التعاطف الثر مع الشرط الإنساني والتسامح معه، وتقبّله، بل وتمجيده، رغم بعده عن الكمال في حقيقة الأمر.

عزيز نسن هو ممثل الانقلاب الكبير في تاريخ الآداب الشرقية ذات الشرعية الرسمية النابذة القادرة حتى على إدراج «الجاحظية» في ترسيمتها الزمنية، التي طالما تهكم وسخر «أبو عثمان» منها، ومن ممثليها الذين هم لدرجة تزمتهم، يرفضون القيام في حلقات الدرس بطرد الذباب عن وجوههم كي لا تنال الحركة من صنمية وقارهم.

انقلاب عزيز نسن يمثل الحركة النابذة باتجاه المحيط، المجتمع، الحياة، باتجاه المغمور والمسكوت عنه، لتأسيس مقاصد جديدة للأدب، تتجاوز ترسيمة «الكلام الموزون المقفى» للتموضع في التاريخ والمجتمع بمثابتها ترقيشاً منظماً للكلام، معادلاً للإيقاعات المدركة للحياة، الحياة التي ينتجها العالم السفلي بحركته النابذة، لا الحياة التي ينتجها العقل الفقهي وفق منظومته الموزونة المقفاة المتناسبة مع مركزيته الجاذبة، ولذا فقد ناصب فقهاء الأدب التركي العداء لأدب عزيز نسن لطرده من دائرة الأدب الرسمي، بوصفه كاتب «نوادر ونكات»، تماماً كما ناصب الفقه الأدبي العداء لحكايات «ألف ليلة وليلة» و«المقامات والسير الشعبية» بوصفها آداب عوام لا ترتقي إلى مستوى تزمتهم الرفيع، ودائرة حلقاتهم المليئة بالذباب،

لأنهم ببساطة لا يتحركون، فحركة الحياة تشكيك بصلابة جمود منظوماتهم المتخشبة.

النزعة الملهاوية الساخرة لم تشع خرابها الجميل في البنى التقليدية الأدبية والثقافية فحسب، بل كانت دائماً تُبطّن بهجاء ظاهره المرح وباطنه الغضب ضد السلطة «بوصفها» صنم على اعتبار السلطة في مجتمعاتنا هي «هبل» الأصنام التي تصطنعها أنماط الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، فإنه يملأ أفواه الشعب «ضحكاً فضياً» على وثنيتها الكاذبة والفاضحة، ويملأ قلب السلطة غلاً على غل، فتصفده بالأغلال. حتى أنه لم يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره إلا وقضى خمس سنوات منها في السجون.

الملهاة والمأساة والهجاء ليست أشكالاً أو أنواعاً أدبية، لكنها صياغات لطرق في التفكير، ومواقف تجاه العالم، وأساليب للتفاهم مع معنى انتصاراته وتقلباته.

وعلى هذا فإن هذه الثلاثية (الملهاة، المأساة، الهجاء) كانت تخترق كمنظور ورؤية وموقف من المجتمع والعالم، كل ما كتب هذا الكاتب العظيم الذي فارقنا منذ شهر (أوائل تموز 1995).

ولعلّ ترجمة الأستاذ فاروق مصطفى لهذه المجموعة التي بين يدينا «أي حزب سيفوز؟» إلى اللغة العربية، ستكون بطاقة عزاء من المثقفين العرب للمثقفين الديمقراطيين الوطنيين التنويريين الأتراك بفقدانهم لمؤسس الأدب الساخر الغاضب ذي القلب الأبيض الناصع عزيز نسن، الذي يحق له أن ينضم إلى كبار الهجّائين الساخرين الغاضبين عالمياً (برناردشو - سويفت - فولتير - مارك توين).

هذا العالم ملهاة لمن يفكر ومأساة لمن يشعر، هذا القول تشخصه وتجسده كتابة نسن بجدارة وطلاقة.

المجموعة التي اختارها المترجم، والتي بين أيدينا، تفصح عن هذا التعالق الجدلي بين من يفكر ومن يشعر، ومن خلال نص ظاهره المرح، وباطنه الغضب، ووظيفته الهجاء الفاضح.

فمنذ القصة الأولى التي تُعَنون هذه المجموعة، أي حزب سيفوز؟ سنتلمس هذا الهجاء الذي يفضح المسخرات الانتخابية التي تشهدها بلدان التخلف إذ تحاكي نماذج الدولة الحديثة الديمقراطية، فمرشحا الحزبين يفتحان مزاداً على القروض المصرفية التي سيقدمها الواحد منهم إذا انتُخب، لكن مع ذلك ينجح المرشح الذي قدَّم عروضاً أقل، لأن الناس تُعطي صوتها للحزب الذي تؤمن به.

رغم أن الأحداث التي يسوقها على مستوى المحور التوزيعي للمتن الحكائي للقصة تتبدى لنا عن سذاجة وعفوية شعبية دهماوية تنتقل بين الفينة والأخرى من طرف هذا الحزب إلى ذاك، وفق الوعود برفع القروض، فإنه على مستوى المحور الاستبدالي التركيبي، الذي يعيد بناء العناصر التكوينية للنص، لبلوغ الدلالة التفسيرية، فإن (نسن) يقوِّض الضلالات الوهمية المعممة عن الشعب، بصورة المواطن الساذج المنقاد لكل ناعق دجال، ليفضي النص عن مغزاه، في المقولة الغرامشية عن «بداهة الحس السليم» للجماهير التي تعرف كيف تتصرف بإرادتها وفق قناعاتها لا وفق الأضاليل التي تزوِّر وعيها.

فالنص على مستوى القراءة التفسيرية الأولى يفضي إلى هذه العفوية الجماهيرية، لكنه في مستواه التركيبي الذي تنتجه الخاتمة بوصفها ملاذ اتحاد العناصر يتكشف عن بعد جديد، حيث المغزى، القار، في الداخل، الجوهر، داخل وجوهر تشابك العناصر، هذا البعد يتظاهر بحقيقة أن للشعب، أصالته، وإرادته، وحسه السليم في تلمس الحقائق التي تتحدى وعيه.

علي مولا

فإذا ضُلل وخُدع مرة، فإنه لن يُخدع مرات، هكذا تتحقق أطروحة النص في قصة «هذه مشاكلنا» فالنوّاب الذين سيعودون إلى مرشحيهم ليجددوا التصويت لهم يواجهون بعلب سجائرهم التي نسوها منذ الدورة الانتخابية السابقة، حيث مطالب أهل القرية مدونة على هذه العلب.

هكذا يعود المرشحون يجرون أذيال الخيبة وسط ضحكات أهل القرية من فهلوية النخب الحاكمة التي تزين لها فهلويتها أن الناس، الجماهير، يمكن تضليلها، والسخرية من آلامها، فتنقلب السخرية مرتدة إلى نحورهم.

مشكلة الديمقراطية تشكّل هاجساً رئيسياً في إنتاج عزيز نسن الذي يتجاوز المئة كتاب من قصص ومسرحيات وروايات ومقالات. وقد خصّها في هذه المجموعة مساحة طبوغرافية تتوازى مع المساحات الأخرى التي تتوزع على المجتمع التركي.

وإذا كانت مشكلة الديمقراطية بوصفها ضرورة أساسية على طريق امتلاك نموذج الدولة الحديثة، تحيل إلى النموذج الغربي كما تتفاصح الأصوليات السلفية، والحداثوية، لاتهام دعاتها بالتغريب والتبعية للنموذج الغربي، أو كما تقدّمها أنظمة مشوهة وممسوخة، سيما الدولة التركية التي طالما تتمسَّح بالديمقراطية للاعتراف بأوروبيتها. نسن الذي يؤمن بالشعب وبأصالته، وببداهة حسه الوطني. يدفع بمشكلة العلاقة مع الغرب وما تطرحه من إشكاليات تتصل بموضوع المثاقفة، والتبعية، والأصالة، والحداثة لتكون الموضوع الذي يشغل مساحة هامة في الطبوغرافيا الاجتماعية لنسن.

فيتناولها على طريقته المتميزة في قصة قلَّ نظيرها في قدرتها على التغلغل في البنية اللاشعورية لتفكيك عقدة «الخواجة» التي كرَّسها الغرب عبر زمن طويل من الهيمنة الاستعمارية في لاوعي الشعب. وذلك من خلال

قصة «في بيتنا ضيوف أمريكيون» وسط مهرجان من الضحك المؤسّس على مفارقات رهيفة في التغلغل تحت سطح قشرة الوعي الجماهيري، يمارس الكاتب هجاءه الغاضب تجاه سذاجة الوعي العام، وأوهامه وأساطيره، وعقده الدونية نحو الغرب (الأمريكان). لكنه الغاضب المحب، المؤمن، بشعبه، وحريته، وكرامته، وسيادته، واستقلاله، ولذا فهو يشيع فضاء من الضحك الفضي البريء، وقهقهات العافية التي تريد أن تنتصر على أمراضها، فنضحك من مواطنيه بتعاطف. ونقهقه بودٍّ وحبٍّ، فهو يسخر سخرية المقرِّع المحب، وكأنه يقرِّع أبناءه.

لكن المحور الاستبدائي الدلالي، إذا يتلاقى مع المحور التوزيعي للأحداث والمواقف، فإن الغضب يتسلل من وراء الضحكات، ليتوجه إلى أنظمة الطغم التابعة، التي زينت النموذج (الأمريكي) بوصفه مثالاً باعثاً على الانبهار في وعي العامة الطيبين، فأسطرت هذا المثال حتى تحول إلى استجابات عفوية غرائزية في وعي الناس، فالناس ليسوا إلا ضحايا أساطير حكامهم الذين يتدافعون للانبطاح أمام عظمة حامي أنظمتهم.

وعلى هذا فإن الصورة لعلاقة الراوي وأهل الحي الذين يصفقون للضيوف الأمريكيين، مع الآخر (الأمريكي). ليست إلا تكثيفاً لصورة علاقة بلدان الأطراف بالمركز الأمريكي، الذي لا ينتج تبعية اقتصادية سياسية فحسب. بل يستتبعها بتبعية سيكولوجية تنتج علاقة العبد / السيد بوصفها العلاقة الوحيدة الممكنة للصداقة التركية - الأمريكية - وسيقرؤها القارئ العربي في هذه المجموعة المترجمة - الصداقة العربية - الأمريكية، فالهموم، والمشاغل، والتحديات متقاربة، ومتداخلة، بل ومتطابقة.

في السياق نفسه، تندرج قصة «بطل الهز والدعبلة» في نسق العلاقة بالآخر الغربي، ومشكلة التحدي الحضاري والاستلاب الثقافي فيقدم نص

هـذه القـصة لوحـة تـشكيلية كاريكاتوريـة مدهـشة في تهكمهـا وسـخريتها اللاذعة لموسيقى الجاز بوصفها نموذجاً للثقافة الأمريكية المعممة.

يصوغ النص مفارقته من خلال اصطدام الوعيين، الوطني /الغربي، حيث ابن البلد يستغيث طالباً النجدة عندما يشاهد حلقة رقص الجاز، فيعتقد أن هناك معركة سيكون فيها الدم للركب، ويتجاوب لاستغاثته ابن بلد مثله فيجد نفسه مع زوجته وسط الراقصين، حيث يتدحرج بينهم، ولا يتمالك توازن نفسه وزوجته، وفجأة يتوقف الرقص، فينال الزوجان جائزة الرقص الأولى.

وهكذا تتوالى الساحات الطبوغرافية في هذه المجموعة التي تضم سبع عشرة قصة لتغطي مختلف الجوانب الاجتماعية، للسيطرة على كل المواضيع التي تستثير غضب الكاتب ضد مجتمعه الذي يريده أن يكون أفضل.

نقـد هجـائي سـاخر للبيروقراطيـة في صـيغتها الحقوقيـة الإداريـة والمدنيـة، مثـال قـصة «أصـولاً» حيـث يتخـذ الهجـاء طابعـاً سـاخراً كوميـدياً يظهر مدى الشكلانية الفارغة الغبية والضيقة الأفق للأجهزة والمؤسسات التي تستعلن نفسها في صورة احترام القانون. وفي السياق ذاته تأتي قصة «باقـة بقـدونس» لكـن القـصة هنـا تنحـو منحـى الحفـر وراء الظـاهرة البيروقراطيـة، ليظهـر أن التـشدد في الـصيغ القانونيـة يخفـي وراءه مـصالح كبرى للنخب البيروقراطية التي تجعل من «باقة البقدونس» مشكلة وطنية، تمسُ سياسة الحماية الاقتصادية والسوق السوداء.

لن نطيل في تناول قصص هذه المجموعة التي يصعب حقاً اختزالها إلى حدود حكاياتها، فالعرض، والوصف، والتقديم، والبناء تترقش ترقيشاً ساخراً، تهكمياً، ضاحكاً، هازئاً، هاجياً، مداعباً، بشكل منهجي يجعل من العالم موضوعاً للتفكير والشعور معاً، حيث وحدة الملهاوي بالمأساوي تمنح

أدبية أدب عزيز نسن خصوصية اندماج الرؤيتين للعالم، هذا العالم ملهاة لمن يفكر ومأساة لمن يشعر.

الأستاذ فاروق مصطفى مترجم مقتدر عن التركية، وقد أتاح له موروث انتمائه للتركية قدرة على التغلغل في النسيج الحي للغة، لامتلاك روح خصوصيتها ولونياتها وأطيافها الموحية.

كما أتاح له موقفه الوطني والعربي من امتلاك العربية ليس كلغة فحسب، بل وكقضية ورؤية وموقف، هو الباعث على اختيار عزيز نسن الذي سبق وأن ترجم له مجموعة تحت عنوان «كيف ينقلب كرسي؟».

إن اختيار عزيز نسن المثقف الوطني الديمقراطي التنويري للترجمة إلى العربية، إنما هو خيار وطني وديمقراطي وتنويري.

فتعالوا نقرأ عزيز نسن ونشكر فاروق مصطفى.

حلب 20 آب 1995

عزيز نسن في سطور[1]

بقلم: فاروق مصطفى

حياته وأعماله[2]:

هو محمد نصرت نسن، ولد في 20 كانون الأول عام 1915 في إحدى الجزر القريبة من اسطنبول، والواقعة في بحر مرمرة، ومازال على قيد الحياة[3]. مستمراً في الكتابة الساخرة، وقد بلغ الثمانين من عمره، وبلغت أعماله 95 عملاً.

هو ابن عائلة معدمة، عاش الحربين العالميتين الأولى والثانية، فبعد أن أنهى الإعدادية العسكرية عام 1935، دخل الكلية الحربية وتخرّج منها عام 1937، وفي عام 1939 تخرج من الكلية العسكرية الفنية برتبة ضابط في الجيش، وفي أثناء متابعته للدراسة في الكلية العسكرية، درس

---

(1) اسم ساخر، اختاره الكاتب كنية له، يسخر به حتى من شخصه، فيعتبره نكرة مجهولاً ويوجه إليه تساؤلاً هازئاً مستخفاً بصيغة غير العاقل، ما أنت؟ ماذا أنت؟

(2) بتصرف عن كتاب «Cagimizin Nasrettin Hocasi Aziz Nesin» جحا عصرنا عزيز نسن للكاتب التركي «Demirtas Ceyhun».

(3) انظر الصفحة 23.

في كلية الفنون الجميلة مدة عامين، وهكذا جمع في شخصه شخصيتي عزيز نسن العسكري، وعزيز نسن الشاعر والأديب الظريف، والفنان وعاشق الجمال.

هو أهم كاتب تركي معاصر، إذ يُعتبر مارك توين تركيا، ويُعتبر أحد أبرز ممثلي الهجائية الساخرة في العالم. نال جوائز عالمية عديدة عن قصصه الساخرة، التي تُرجمت إلى أغلب اللغات الحية، ومنها اللغة العربية، والتي يكتبها أحياناً على لسان بعض الحيوانات، مستعيداً فيها تراث كليلة ودمنة، وألف ليلة وليلة، بإسقاطها على الحياة ومشاكل العالم الثالث، مُبرزاً معاناة إنسان هذا العالم، مُلبساً المأساة أثواب الكوميديا، منطلقاً في سخريته من تمرد ورفض كبيرين، يقترن التعبير عنهما بقدر غير قليل من القسوة التي تأتي مغلّفة بروح الدعابة والمرح الظاهرين لكنها أبداً تقطر بالمرارة والألم.

«موضوعاتي كلها أستقيها من الحياة التي عشتها وأعيشها، هناك أوضاع إنسانية لا يمكن المرور عليها مرور الكرام. أوجاع وآلام ومشاكل، صخب حياة وظلم وتخلف وأمراض عديدة، ودوري ككاتب هو تكثيف هذه الحالات والتفاعل معها، وصبّها في قوالب أدبية، علّها تبقى في وجدان القارئ كي توجهها نحو خلاصه، وخلاص غيره من الناس». هكذا تحدث عزيز نسن في إحدى حواراته الصحفية مشيراً إلى الينابيع التي تشكل مصادر إلهامه، وملخصاً مدى علاقة أدبه بالحياة التي استطاع أن ينفذ إلى آلامها ومشاكلها، وأن يسلّط الضوء ببصيرته ووعيه على الأوضاع الإنسانية الرثة فيها[1].

عانى عزيز نسن وقاسى واعتُقل وسُجن ووُضع تحت المراقبة في كل

---

[1] من مقالة للأستاذ محمد منصور، مجلة الكفاح العربي العدد 829 حزيران 1994.

العهود تقريباً، خاصة في الفترة بين عامي 1945-1960 حيث كانت مدة إقامته في السجن أكثر من حياته خارجه.

يتكلم عن بداياته فيقول: (بين عام 1940-1943 كنت عسكرياً في قارص، وكنت أكتب الشعر والقصص القصيرة، ولما كانت كتابة العسكريين غير مستحبة، استعملت منذ ذلك الوقت اسم «عزيز نسن» المستعار، وصرت أنشر قصصي القصيرة بهذا الاسم في مجلة «Millet - الأمة» اليمينية، التي كانت تصدر في أنقرة، ثم صدرت هذه القصص فيما بعد عن دار «Yeni Adam الرجل الجديد». أما أشعاري فكنت أنشرها منذ عام 1937 باسم وديعة نسن في مجلة «Yedigun الأيام السبعة». وبسبب سجني عام 1944 سُرحت من الجيش، فجئت إلى اسطنبول، وعملت في مجلة «Yedigun» وكانت بداياتي الصحفية) عمل فترة في مجلة «yedigun» ثم عمل مديراً لجريدة «Karagoz الأرجواز». وفي عام 1945 انتقل ليكتب الفقرات والمقالات في جريدة «Tan الفجر». لكن المدة لم تطل، إذ أُغلقت الجريدة، فعمد إلى إصدار مجلة باسمه لم تستمر أكثر من ثمانية أسابيع، انتقل على أثرها ليعمل في جريدة «Vatan وطن» مع السعي لإصدار مجلة خاصة به.

وفي كانون الثاني عام 1946 تمكن من إصدار جريدته الشهيرة «Marko Pasa ماركو باشا» التي سبقت كل الصحف اليومية، ووصلت مبيعاتها إلى 60 ألف نسخة يومياً، لكن حكم «حزب الشعب الجمهوري» لم يرضَ عن مقالات عزيز نسن، فاعتقله عام 1946 بسبب إحدى مقالاته.

وفي عام 1947 حُكم عليه بالسجن عشرة أشهر، وبالنفي إلى بورصه ثلاثة أشهر ونصف بعد انقضاء مدة سجنه، بسبب مقالة كتبها عن الرئيس الأمريكي ترومان، تهجم فيها على القرض الأمريكي لتركيا في ذلك الحين،

وقال بوجوب رفض تركيا لهذا القرض الذي ستستوفيه الولايات المتحدة الأمريكية بأن تمتص خيرات تركيا امتصاصاً.

ومن الطبيعي أن تمنع «Marko Pasa» عن الصدور مع اعتقال صاحبها، لكن عزيز نسن لم ييأس فأصدر جريدته باسم «Maalum Pasa معلوم باشا». وهكذا كلما اعتقل راحت الجريدة تغير اسمها. فلما أُغلقت «Maalum Pasa» صدرت جريدة «Merhum Pasa مرحوم باشا». وبعد إغلاقها صدرت جريدة «Ali Baba علي بابا». وبعد إغلاقها صدرت جريدة «Bizim Pasa باشاتنا» وبعد إغلاقها صدرت جريدة «Hur Marko Pasa ماركو باشا الحر»، وآخر الأمر أصدر جريدة «Medet مدد».

وفي عام 1950 حُكم عليه بالسجن ستة عشر شهراً بسبب ترجمته لأجزاء من كتاب ماركسي. وهكذا فإن عزيز نسن الذي ترك الجيش عام 1944 برتبة ملازم أول، ودخل ميدان العمل الصحفي وهو في التاسعة والعشرين من عمره، كان قد أمضى خمس سنوات ونصف في السجن عندما بلغ الخامسة والثلاثين عام 1950.

في 14 أيار 1950 استلم «الحزب الديمقراطي» مقاليد الحكم في تركيا، لكن عزيز نسن الذي خرج من السجن عام 1951 لم يجد له عملاً في الصحافة، فعمد إلى فتح دكان لبيع الكتب، لكنه لم ينجح، فعمد عام 1952 إلى فتح محل للتصوير، وبقي يعمل مصوراً حتى عام 1954، إلا أنه لم يبتعد عن الكتابة، ففي الوقت نفسه ومنذ عام 1952 كان يكتب القصص القصيرة وينشرها في جريدة «Akbaba شوحا» تحت أسماء مستعارة، إذ استعمل أكثر من مائتي اسم مستعار غير اسم عزيز نسن الذي انكشف وأدرج في قيود البوليس.

وفي عام 1955 أمضى شهوراً عديدة في السجن دون تحقيق، ودون أن يعرف سبب اعتقاله، ولم يعد إلى اسم عزيز نسن إلا بعد أن حصل

على جائزة السعفة الذهبية العالمية من إيطاليا عام 1956. وكانت عودته إلى العمل الصحفي بعد هذا التاريخ أيضاً، إذ عمل محرر زاوية في جريدة «Aksam المساء» ومع أنه كان من أنصار حركة الجيش في 27 أيار 1960 التي أنهت حكم «الحزب الديمقراطي» وأعلنت يوم 27 أيار عيداً للحرية، ونادت بإطلاق الحريات. فأيّدها بكل جوارحه، واستبشر وتفاءل بها، حتى أنه تبرع بجائزة السعفة الذهبية إلى خزينة الدولة دعماً منه للحركة، إلا أن قادة الحركة كانوا يعتبرونه يسارياً متطرفاً. مع ذلك بعد عام 1960 أتيحت له فرص العمل وكتابة المقالات في الصحف التالية على التوالي «Tanin طنين»، «Oncu التقدمي»، «Yeni Tanin الطنين الجديد»، «Gunaydin صباح الخير».

يذكر أنه عندما كان متخفياً في اسطنبول في إحدى المرات، بقي بلا طعام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع أكل قشور البرانصا التي رماها الجيران في تنكة الزبالة. ويضيف قائلاً: «لا شك أن الإنسان الذي يضطر لأكل قشور البرانصا المرمية في تنكة الزبالة، يعرف قيمة ما يجنيه من تعبه، ولا يقبل أن يفرط فيه. أنا ممتن لأني عشت تلك الأيام، فليس من السهل أن يكون المرء إنساناً، أما أن يبقى شريفاً في هذا المجتمع..!!».

انتُخب عزيز نسن نائباً لرئيس اتحاد الأدباء الأتراك في 16 نيسان 1967 ولما تأسست فيما بعد نقابة الكُتاب، انتُخب رئيساً لنقابة الكُتاب الأتراك. والطريف أن خصومه من الأدباء الأتراك لم يكونوا يعتبرونه أديباً، وكانوا يقللون من شأنه ويصفونه بأنه «كاتب النكات»، أو «الهازل». علماً بأنه نال جوائز عالمية عديدة على قصصه القصيرة الساخرة. ومن الجوائز العالمية التي نالها نذكر:

1- جائزة السعفة الذهبية من إيطاليا عام 1956.

2- جائزة السعفة الذهبية من إيطاليا عام 1957.

3- جائزة القنفذ الذهبي من بلغاريا عام 1966.
4- جائزة التمساح الأولى من الاتحاد السوفييتي عام 1969.
5- جائزة اللوتس الأولى من اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا عام 1975.

شارك في العديد من المؤتمرات الأدبية العالمية، بعد أن حصل على جواز سفره لأول مرة في حياته بعدما بلغ الخمسين من عمره عام 1965 حيث كان قبل هذا التاريخ ممنوعاً من مغادرة البلاد.

ومن المؤتمرات العالمية التي شارك فيها نذكر:

1- مؤتمر اتحاد كُتاب آسيا وأفريقيا في القاهرة في تشرين الثاني عام 1966.

2- مؤتمر اتحاد الكُتاب السوفييت في موسكو في أيار عام 1967.

3- مؤتمر اتحاد كُتاب آسيا وأفريقيا في لواندا عاصمة أنغولا في حزيران عام 1979.

4- مؤتمر اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا في هانوي عاصمة فيتنام في خريف عام 1982.

أنشأ عزيز نسن وقفاً باسمه، نذر له ريع كل أعماله الأدبية، مهمة هذا الوقف رعاية الأطفال الأيتام حتى آخر مراحل الدراسة الجامعية، أو حتى تأمين عمل أو مهنة لمن تعثَّر منهم في دراسته، بحيث تؤمن لهم المهنة الحياة الكريمة وقد استقبل الوقف أول فوج من الأطفال الأيتام في نهاية عام 1977.

آثاره الأدبية :

كتب عزيز نسن في الرواية والمسرحية، فضلاً عن القصة القصيرة وقصص الأطفال:

الرواية:

- Zubuk الفهلوي.[1]
- Olmus Esek الحمار الميت.[2]
- Gol Krali الهدّاف.[3]
- Tatli Betus بتوش الحلوة.

المسرحية:

- Bisey Yap Met افعل شيئاً يا مت[4].
- Toros Canavan وحش طوروس[5].
- Biraz Gelirmisiniz هل تأتون لحظة.
- Uc Karagoz ثلاثة أراجوزات.
- Tut Elimden Rovni امسك يدي يا روفني.
- Hadi Oldursene Canikom هيا اقتلني يا روحي.

---

(1) ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبداللي عام 1987 وصدرت عن دار الأهالي للطباعة والنشر بدمشق وأخرجها الأستاذ هيثم حقي للتلفزيون العربي السوري عام 1992 كمسلسل تلفزيوني باسم «الدغري» ولعب بطولته الفنان السوري الكبير الأستاذ دريد لحام

(2) ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبداللي عام 1989 وصدرت عن دار المنارة باللاذقية للدراسات والترجمة والنشر.

(3) ترجمها إلى العربية الدكتور هاشم حمادي عام 1993 بعنوان «ملك الكرة» وصدرت عن دار الحصاد بدمشق.

(4) ترجمها إلى العربية الأستاذ جوزيف ناشف - سلسلة «من المسرح العالمي» الكويت عام 1986.

(5) ترجمها إلى العربية الأستاذ جوزيف ناشف - سلسلة «من المسرح العالمي» الكويت عام 1986.

Dudukeulerle Fircacilarin Savasi	حرب المصفرين وماسحي الجوخ.
Cicu	جيجو.

القصة القصيرة:

Ah Biz Esekler	آه منا نحن الحمير[1].
Insanlar Uyaniyor	البشر يستيقظون.
Mahallenin Kismeti	نصيب الحي.
Bir Koltuk Nasil Devrilir?	كيف ينقلب كرسي؟[2].
Yesil Renkli Namus Gazi	غاز الشرف الأخضر.
Hangi Parti Kazanacak?	أي حزب سيفوز؟
Kor Dogusu	صراع العميان.
100 Liraya Bir Deli	مجنون بمائة ليرة.
Damda Deli Var	مجنون على السطح[3].
Yasar Yasear ne Yasamaz	يشار لا يعيش ولا لا يعيش.
Yetmis ne Yasim Merhaba	مرحباً بعامي السبعين.
Memleketin Birinde	في إحدى الدول[4].

---

(1) ترجمها إلى العربية الأستاذ جمال درمش عام 1994 وصدرت عن دار الطليعة الجديدة بدمشق.

(2) ترجمتها إلى العربية عام 1987 وطبعت في مطبعة دار العلم بدمشق عام 1992 توزيع دار الينابيع بدمشق ضمن سلسلة الأدب الساخر.

(3) ترجمها إلى العربية الأستاذ محمد الظاهر ومينه سمارة عام 1988 وصدرت عن دار الكرمل بعمان للنشر والتوزيع.

(4) ترجمها إلى العربية الأستاذ عبد القادر عبد اللي عام 1990 توزيع مكتبة دار الرازي بحلب

لا تنس تكة السروال[١].

أسفل السافلين[٢].

Vatan Sagolsun فليحيا الوطن.

وغيرها كثير جداً.

مذكرات وخواطر:

Poliste في قسم الشرطة.

Benim Delilerim مجانيني.

Bir Surgunun Anilari مذكرات منفي.

أدب الرحلات:

Irak ve Misir العراق ومصر.

وجدير بالذكر أنه في فترة عندما بلغت كتبه سبعة وستين كتاباً، ظهر له في إيران أكثر من سبعين كتاباً، إذ كانوا يجمعون مقالاته وقصصه المنشورة في الصحف، ويصدرونها في كتاب، قبل أن يجمعها هو في تركيا.

وكان الإيرانيون يصدّرون كتبه إلى أفغانستان أيضاً.

وكان عزيز نسن يحار ويدهش لهذا الأمر، ويتمنى لو اطّلع على كتبه هذه.

---

[1] ترجمها إلى العربية الدكتور هاشم حمادي عام 1992 وصدرت عن دار الحصاد بدمشق

[2] ترجمها إلى العربية المخرج السينمائي السوري عبد اللطيف عبد الحميد عام 1993 وصدرت عن دار الحصاد بدمشق

وفي المقدمة الخاصة بالترجمة العربية لمجموعته القصصية «في إحدى الدول» التي ترجمها الأستاذ «عبد القادر عبداللي»، يقول عزيز نسن:

«أعزائي القراء العرب الأدب هو النور الذي ينير ظلمات البشرية. إن خدع الإمبريالية وأطماعها قد نجحت وللأسف في إبعاد الشعبين العربي والتركي، أحدهما عن الآخر، هذين الشعبين اللذين كانا متعارفين جيداً في الماضي، كان مطلوباً أن يعادا إلى الظلمات.

من غير الممكن أن يتعرف الشعبان التركي والعربي، أحدهما على الآخر، من خلال العلاقات بين الحكومات، والتجارة فقط، لا يمكن أن يتحابا دون أن يتعارفا عن كثب. وهناك ما يمكن أن يؤدي إلى المعرفة المتبادلة بيننا بالتأكيد، إنه شعرنا ورواياتنا وقصصنا وحكاياتنا، أو بكلمة واحدة: أدبنا».

وفي أوائل تموز 1995 رحل عن الدنيا، عزيز نسن الكاتب العالمي الهجائي الساخر الناقد، المتمرد، الرافض، الغاضب، القاسي، المداعب، الفنان المرح، الظريف، الشاعر، المتألم، الذي استقى موضوعات أعماله كلها من الحياة التي عاشها كواحد من أبناء العالم الثالث راصداً الأوجاع والآلام والمشاكل والظلام والتخلف، متفاعلاً معها. نافذاً في أعماقها.

مخلفاً لنا هذا الكم الهائل من الأعمال الروائية والمسرحية والقصصية الهاجية بهجاء ظاهره المرح وباطنه الغضب والرفض والسخط والتمرد.

وبفقد عزيز نسن، يفقد الأدب الساخر أحد أكبر مؤسسيه وأبرز ممثليه في العالم حيث لحق، وانضم إلى الخالدين من أعلام الأدب الهجائي الساخر، الذين رحلوا، مارك توين، وفولتير، وبرناردشو.

حلب 24 آب 1995

أي حزب سيفوز

قالوا:

- إن مراد آغا يعرف كل شيء.

حللت ضيفاً على مراد آغا في بيته لعدة ليالٍ، وكنت قد لقيته في المقهى، فبادرته:

- أخبروني أنك الوحيد الذي تعرف يا مراد آغا. فهات وأخبرني أي حزب سيفوز في هذه الانتخابات؟

فأجابني مراد آغا:

- لا يمكن التكهن بذلك.

- ألا يفوز الحزب الأقوى؟

- لا، لا يمكن التكهن، إذ لا يعرف الخروف الأبيض من الخروف الأسود إلا بعد ظهور نتائج الانتخابات. فلو سألت أهالي هذه البلدة فرداً فرداً، مع ذلك لا يمكنك معرفة من سيفوز. هل تعرف لماذا؟ انظر، اسمع.

وضع ساقه اليسرى تحته، وجلس متربعاً على الأريكة، وبعد أن استقر مرتاحاً في جلسته، أشعل سيجارته وبدأ يشرح موضحاً:

- سابقاً لم يكن لدينا في هذه البلدة حزب أو مزب. طبعاً كان هناك حزب، ولكن كان اسمه فقط هو الموجود. فلم يكن لأحدٍ علم أو خبر بالحزب. كنا آنذاك نعرف الحزب على أنه الحكومة. مبنىً ضخم،

مبنى حكومي، وكان يقال: إنَّ داخل هذا المبنى يوجد حزب. وفجأة برز في البلدة نشاط حزبي، فهاجت البلدة وماجت. جاءني الخياط كامل قائلاً: مراد آغا، تعال نفتح هنا شعبة الحزب الجديد. فنهرته قائلاً: «ولك كامل يا ابني هذا الذي تحكي عنه حزب وليس دكان خردوات. رُح شوف شغلك..» بعده جاءني المحامي رضا بيك أيضاً مصمماً على أن نفتح حزباً. وكان المحامي رضا على اتصال مع كبار الحزبيين الجدد. وكان يراسلهم. قال لي: «هذه البلدة تسمع كلامك، فتعال نؤسس هذا الحزب» أجبته: «ولك يا ابني لا تعي، فقد تأسست في هذه البلدة في وقت من الأوقات فرقة اسمها فرقة سلبس. لقد شتتوا مؤسسي تلك الفرقة شر تشتيت، وزرعوا مكان المساكين أشجار التين. لم يستطع أحدهم البقاء في البلدة فغادروها مهاجرين». فأجابني المحامي رضا بيك: «أمان يا مراد آغا، وأي زمان هذا.. لقد ولّى الزمن الذي تحدثني عنه. ففي هذا الزمن سيكون عندنا كما هو في أمريكا تماماً. فكل إنسان ملزم قانوناً على الانتساب لحزب ما».

بلا طول سيرة. أسسنا الحزب، وما أن فعلنا حتى انسحب أعضاء الحزب الآخر، وتهافتوا على حزبنا الجديد. تهافت الناس على الانتساب، ولم يعد كاتب الحزب قادراً على متابعة كتابة أسماء المنتسبين. وماذا سنعمل بكل هؤلاء الناس؟ تملكني الخوف يا ابن أختي، لا تسل.. فقلت لرئيسنا المحامي رضا بيك:

«أمان يا رضا بيك، فلنغلق باب الانتساب، وإلا سينفتح على رأسنا باب». أجابني «لن يحدث أي شيء. فالحزب الذي يكثر عدد أعضائه هو المقبول، وكلما ازداد عدد أعضاء حزبنا، سهل علينا استلام الحكم».

وكأنه لا يكفينا الذين وفدوا إلينا من الحزب الآخر إلّا أن ينتسب إلى حزبنا كل من هبَّ ودب، ومن لا يعرف الحزب أو المزب يا ابن أختي؟ إلى

أين سيؤدي بنا هذا؟ الأمان.. ولكن أين من يعرف ويفهم الأمان أو الزمان؟ القادم يدخل.

دخلت البلدة كلها وملأت حزينا يا ابن أختي. لو سمع أحد الذين فوق لمزقونا إرباً. فقلت في نفسي: فلأترك هذا الحزب وأنتسب إلى الحزب الآخر. كانت التهاني تنهال علينا من مركز الحزب باستمرار. وألقى المحامي رضا بيك كلمة كادت ساحة البازار تنهار من شدة التصفيق له. وفي أحد الأيام جاءنا خبر يا ابن أختي. الرئيس العام لحزبنا قادم.. خرجت البلدة بأكملها لاستقباله. وألقينا بأنفسنا على الطرقات من سن السابعة وحتى السبعين. بحيث لو رأى أو سمع أحد الذين فوق، لرحّلونا وطردونا من المنطقة بأسرها، ولوزعوا المدينة على أطراف الدنيا الأربعة لتكون عبرة لمن يعتبر.

كنا نظن المحامي رضا بيك خطيباً مفوّهاً. ولكن ليتك تسمع الرئيس العام لحزبنا. فالرجل يتكلم لحظة فيجهش الناس بالبكاء، ويتكلم بعدها ثانيةً فيضحك الناس ويرتمون على الأرض من شدة الضحك. مرة ثالثة يبكي الناس، وأخرى يضحكون، تظن يا ابن أختي كأن أزرارنا بيد الرجل، يدير الأزرار إلى ناحية فنبكي، ويديرها إلى الناحية الأخرى فنضحك. وبعد الانتهاء من إلقاء كلمته جاء إلى مقر الحزب، وسأل المحامي رضا:

- كم عدد سكان البلدة؟

فأجابه رضا بيك:

- أربعة وعشرون ألفاً.

- لا تحسب في عدادهم الناس لن يدخلوا الانتخابات، أي الذين لا يحق لهم التصويت.

- إذا لم نحسب أولئك فإن عدد الناخبين يبلغ حوالي اثنا عشر ألف ناخب.

- كم عدد المنتسبين إلى حزبنا .

- تسعة آلاف.

فصاح الرئيس مستبشراً:

- إذن فقد ربحنا الانتخابات في هذه البلدة.

وبعدها يا ابن أختي غادر الرئيس العام لحزبنا، وتملك الخوف أعضاء الحزب الآخر. وإذ برئيس حزبهم يصل إلى بلدتنا فجأة وعلى عجل. وكنت قد قررت قبل ذلك أن أنسحب من حزبي وأنتسب إلى الحزب الآخر. لكن الرجل وصل على حين غرة، وفي هذه المرة ألقى هو كلمة. أمان يا ابن أختي، هكذا تكون الكلمات، وإلا فلا يا روحي. لقد بكى الناس بكاءً شديداً، وفي ختام كلمته قال:

- أيها المواطنون، إذا بقينا في الحكم فإننا سنمنح كل قروي قرضاً مصرفياً بقيمة ألف ليرة.

وي يا ابن أختي وي. فكل من سمع بقرض المصرف ركض مسرعاً إلى الحزب الآخر.

وفي اليوم التالي كان محامينا رضا يضرب بيده على رأسه، وعلى ركبتيه، فسألته:

- ما بك يا رضا بيك؟ هل يؤلمك ضرس العقل؟

- أسناني اصطناعية، لذلك هي لا تؤلمني والحمد لله، لكن الأسوأ من ذلك أن أعضاء حزبنا قد انضموا إلى الحزب الآخر.

- ألم يبقَ لدينا أحد؟

- بقي لدينا المؤسسون، والذين لم يسمعوا بقرض المصرف.

رحت أنا أندب، وأشد شعري، وأضرب رأسي بيدي مثل المحامي رضا، ثم قلت له:

أمان يا رضا بيك، لن نصل إلى نتيجة بالندب وشد الشعر، هيا بنا

ولننتسب نحن أيضاً إلى الحزب الآخر، فإذا تأخرنا فقد يرفضوننا بحجة أن السجلات قد امتلأت.

- انتظر قليلاً، لقد أعلمت المركز هاتفياً، فلننتظر ماذا سيكون ردهم؟..

نشطت في المدينة حركة بيع وشراء يا ابن أختي، حركة بيع وشراء عجيبة لا مثيل لها، صار الناس يأكلون المال أكلاً يا روحي، ولما نهرتهم بقولي:

- ولك ما هذه السفالة؟ هل وجدتم الأموال في الشارع؟

أجابوني:

- المصرف سيمنح كل واحد قرضاً بألف ليرة، لذلك.

هل يجوز التشمير عن السيقان قبل رؤية النهر؟ نحن نشمِّر يا ابن أختي، أما المحامي رضا فكان ما يزال يضرب رأسه بيده وهو يندب بصوت تئن له الجبال والصخور:

- أوّاه لقد خسرنا الانتخابات.

وإذ بالرئيس العام لحزبنا يصل على عجل، والله يا ابن أختي لم ينزل من السيارة، بل صعد على ظهرها فوراً بغبار حذائه، وألقى فينا كلمة، الله الله، يا للبلاغة، يفتح فمه مرة فتبكي الجموع، يفتح فمه مرة أخرى فتضحك الجموع، أخيراً ختم كلمته قائلاً:

أيها المواطنون، لقد جاء أحدهم إلى هنا وخدعكم بقوله: إنَّ المصرف سيقرضكم ألف ليرة، وإني أؤكد لكم أننا إذا استلمنا الحكم فسوف نمنح كل أسرة قرضاً بألفي ليرة.

آه يا ابن أختي كان يجب أن تكون موجوداً لتشاهد بعينيك ما جرى. كان لدينا في الحزب تسعة آلاف عضو، انسحب منهم ثمانية آلاف وسبعمائة عضو، وانضموا إلى الحزب الآخر. وما إن سمعوا بالألفي ليرة حتى أسرعوا

وانضموا إلينا، وبينما كان عدد أعضاء حزبنا تسعة آلاف عضو زاد عدد الأعضاء الآن إلى أحد عشر ألف عضو، والمحامي رضا يردد مؤكداً:

- لقد ربحنا الانتخابات هذه المرة لا محالة.

لم يكن رضا وحده، بل كان الناس جميعاً يؤكدون ذلك.

ونشطت في المدينة ثانية حركة بيع وشراء، بحيث صارت الحركة السابقة لا شيء إلى جانب هذه.

ولك ما هذا؟ نهرتهم مستنكراً، فأجابوني:

- لقد نفدت الأموال التي وعدنا بها الحزب الآخر، والآن نحن نصرف الألفي ليرة التي سيمنحنا إياها حزبكم.

لا يمكن للعقل أن يستوعب تصرفات أهل بلدتنا يا ابن أختي؟ إنهم يأكلون المال الذي لم يحصلوا عليه بعد، وما إن يستنفذوه يبدؤون بأكل المال الذي وعدوا به مؤخراً.

هذه المرة كان دور مسؤولي الحزب الآخر في الندب والتحسر، وصل رئيس حزبهم وقال مخاطباً الجموع:

- لقد خدعوكم بقولهم أنهم سيمنحوكم قرضاً بألفي ليرة.

فأجابه أحد أعضاء حزبنا:

- لم يخدعونا، وكيف يمكنهم خداعنا؟ لقد أكلنا المال الذي سيمنحوننا إياه.

فأجابه رئيس الحزب:

- حاضر، لنفترض أنهم لم يخدعوكم، ألم يعدوكم بأنهم سيمنحون كل أسرة قرضاً بألفي ليرة؟ حسناً نحن سنمنح كل فرد قرضاً بألفي ليرة فهل لديكم ما تقولون؟

لم ينتظر أحد انتهاء الرجل من كلمته، تراكضوا ينتسبون إلى حزبه، ولم يبقَ في حزبنا أحد، وعاد رضا بيك يئن ويتحسر:

- أوّاه لقد خسرنا الانتخابات.

كنت هذه المرة قد حسمت أمري في الانتساب إلى الحزب الآخر، وراح الذين سمعوا بالألفي ليرة لكل فرد يعملون بهمة على إكثار عدد النفوس، بحيث ما عاد المأذون الشرعي قادراً على ملاحقة كتابة عقود الزواج، أماناً يا إلهي.. لو استمرت الأمور هكذا فإن البلدة لن تسعنا.. ورحت أسألهم:

- ولك يا ابني، ما هذا الذي تفعلونه؟

- الوطن بحاجة إلى أبناء.

ايه يا إلهي، انتظرتم، انتظرتم، وما صار الوطن بحاجة إلى أبناء إلا في هذه الظروف، خلاصة القول يا ابن أختي، حضر الرئيس العام لحزبنا مسرعاً، وصل في وقته تماماً فلو تأخّر يوماً واحداً ما كان سيجد أحداً في الحزب، بل ولا كان سيجد مقر الحزب أيضاً. وصل يا سيدي وفور وصوله ألقى كلمة قال فيها:

- أيها المواطنون لقد خدعوكم بقولهم: إنهم سيمنحون كل فرد قرضاً بألفي ليرة. إن حزبنا بالإضافة إلى أنه سيمنح كل فرد قرضاً بألفي ليرة، فإنه سيعفي هذا القرض من الفوائد المصرفية أيضاً.

هرع الذين سمعوا هذا الكلام إلى حزبنا، وقذف المحامي رضا قبعته في الهواء صائحاً لقد ربحنا الانتخابات. فقلت له:

- أمان يا رضا بيك، ليت الانتخابات تجري الآن.. فلو جاء رئيس الحزب الآخر ثانية فسوف نحترق، إذ سينضم الجميع إلى الحزب الآخر.

وفعلاً حدث ما توقعته، إذ وصل رئيس الحزب الآخر، وخاطب الناس:

- أيها المواطنون ما معنى أن يقولوا لكم بأنهم سيعفونكم من فوائد القرض المصرفية؟ بالنسبة لنا فكما أننا سنعفيكم من فوائد القرض

المصرفية، فإننا سنعفيكم من جميع القروض القديمة، ولن يبقى مواطن مديناً للمصرف.

آه لو رأيت الساحة يومها يا ابن أختي. انقلبت إلى ساحة عرس، فالذي يرقص، والذي يغني.. قامت القيامة.

ماذا سنعمل ولك يا رضا بيك؟

- احترقنا يا مراد آغا احترقنا، لم يبقَ في الحزب أحد، لقد انضموا جميعاً إلى الحزب الآخر.

- فلنذهب وننضم نحن أيضاً إلى ذلك الحزب.

- انتظر قليلاً، لقد كتبت إلى رئيس حزبنا وأعلمته، وسنرى ماذا سيمنح المواطنين بعد أن أعفوا من القروض المصرفية القديمة؟

اقترب موعد الانتخابات. ومُنعت الدعاية في اليومين السابقين لها، فلو وزّعنا المصرف كله على المواطنين فلن يفيدنا ذلك. لقد تأخرنا، إذ لم يعد في حزبنا مائة عضو، بينما بلغ عدد أعضاء الحزب الآخر ثمانية عشر ألف عضو.

فسألت رضا بيك:

- رضا بيك لا يوجد في بلدتنا هذا العدد من الناخبين، فمن أين جاء هؤلاء؟

- لقد سمعوا بالإعفاء من القروض، فصار الواحد منهم يسجل نفسه في الحزب مرتين على أنه شخصين.

- كم عدد الناخبين الحقيقي عندنا؟

- اثنا عشر ألفاً..

- إذن أستودعك الله يا رضا بيك، هذه أمور حزبية، وفي هذه الأمور لا يجوز الزعل، أنا ذاهب لأنضم إلى الحزب الآخر.

هل أعجبك هذا؟ انتسبت أنا ايضاً إلى الحزب الآخر يا ابن أختي.

طلب مراد آغا فنجان القهوة الثالث، وعدل جلسته، وبدل من وضعية رجليه، فوضع رجله اليسرى تحته، وسألني:

- والآن قل لي يا ابن أختي، أجبني أنت.. حزب يضم ثمانية عشر ألف عضو، وآخر ليس فيه ألف عضو، أجبني يا ابن أختي أي حزب فاز في الانتخابات برأيك؟

- رجاءً يا مراد آغا، وهل هذا سؤال يُسأل؟ قطعاً فاز الحزب الذي يضم ثمانية عشر ألف عضو.

- لم تعرف يا ابن أختي، لم تعرف. لقد فاز في الانتخابات حزبنا الأساسي، الحزب الذي انسحبت منه هو الذي فاز، حتى أنا أعطيت صوتي للحزب الذي انسحبت منه، ما رأيك؟ لم أعطِ صوتي للحزب الذي انتسبت إليه مؤخراً، إن تصرفاتنا لا تدرك يا روحي. أحدهم يأتي ويقول: سنعطيكم ألفين فيهرع الناس وينضمون إلى جانبه، يأتي آخر ويقول: سنعطيكم ثلاثة آلاف، فيهرع الناس وينضمون إلى الجانب الآخر. لكن لا تلقِ بالاً لذلك، فعندما يحين وقت الانتخاب فإن كل واحد يعرف ما سيفعله.

- حسناً، ولكن لماذا حدث هذا؟

- يا ابن أختي يا روحي، الرجل يأتي ويقول سنعطيكم ألفي ليرة، هل يجوز أن تذهب أمواله في الهواء هباء؟ لكي لا تهدر أمواله هدراً فإن الناس ينضمون إلى حزبه. ألا تنفق الأموال قبل أن تصل إلى الأيدي؟ تماماً هكذا.. من يسمع سيرة المال ينضم إلى ذلك الطرف. لكن حين يحين وقت الانتخاب فإنه يعطي صوته للحزب الذي يؤمن به. يا ابن أختي هذا الأمر لا يعرف بتاتاً. لو أمسكت بتلابيبنا وسألتنا فرداً فرداً، سنجيبك بأننا سنعطيك أصواتنا. لا تصدق.. فالحذاء لا تعرف حقيقته إلا حين يُلبس. أتشرب فنجان قهوة آخر يا ابن أختي؟

أصولاً

كان بيتاً في أقاصي صاري بر.. بحثت عنه كثيراً وتعبت حتى اهتديت إليه. المبنى يتوسط حديقة كبيرة، يالجين رفيق طفولتي قلت له:

- بيتكم جميل جداً، فأجابني:

- إنه بيت خالتي جوهر.

كنت ذاهباً لأطلع على كتب يالجين، الذي قادني إلى قاعة كبيرة جداً ملأى بالكتب التي حرت في أيها أنظر. وقال:

- لنشرب الشاي هنا.

وفيما كنت أقلب المجلدات الضخمة، سمعت صوتاً مرتجفاً مهزوزاً، نشازاً، صادراً عن الطابق العلوي:

- الهدف التلة الخضراء.. سر، سر. الله، الله..!

انتبهت برهة، لم أفهم أي معنى لهذا الصوت. فانشغلت بالكتب ثانية، وإذ بالصوت المهتز يُسمع مرة أخرى:

- يمين در، سر! إلى الأمام، سر!

سأسال يالجين، لكني لم أستطع سؤاله بشكل من الأشكال.

لو كان هذا الصوت الآمر يشبه صوت صبي، لقلت إن صبياً يلعب لعبة العسكر. وفيما كنا جالسين على الأرائك الوثيرة نحتسي الشاي، وإذ بالصوت نفسه يُسمع صادراً عن الطابق العلوي:

الهدف بطن الوادي ي ي! سر، سر..!

ثم حدثت جلبة وضوضاء، وفتح باب القاعة فجأة وبقوة، ودخل شخص مذهل الهيئة، لا هو بالمرأة، ولا يشبه الرجل مطلقاً، شعره أبيض طويل، وعلى رأسه قبعة ضابط قديمة جداً، لو نظرت إلى الوجه والشعر فهي امرأة، لكن الثياب ثياب رجل، وقد ملأت الأوسمة والميداليات الصدر، وفوق البنطال كيلوت شُدَّت جوارب نسائية حريرية قديمة، ومن الخصر كان سيف يتدلى.

قفزت من مكاني عندما رأيت هذا المخلوق أمامي فجأة بهذا الشكل فأمسك يالجين بيدي وقال (يعرفني على هذا الداخل):

- خالي جوهر..

- كيف حالك أيها الشاب؟ (سألني الداخل) فأجبت:

- شكراً يا سيدي.

- لا يقال لعريف شكراً، بل يقال له «دمت سالماً».

ثم التفت إلى يالجين وقال:

- يلزمنا تبن لبغال المدفعية.

ثم خرج وهو يصرخ «إلى الأمام سر!».

امتلأت حيرة ودهشة. فقال يالجين:

- أنا لم أُفهمك قصة خالتي جوهر، أليس كذلك؟

- لا، ولكن أفهمني أولاً خالتك جوهر أم خالك جوهر؟

- الاثنان.. انظر فلأشرح لك.. كانت خالتي جوهر تعيش في هذا البيت الكبير مع ولديها بالتبني. إذ كانت تتبنى دوماً ولدين تربيهما. وعندما يكبر أحدهما كانت تزوجه، وتتبنى من جديد طفلة صغيرة تربيها. وعندما انتقل مركز عمل والدي من أنقرة إلى اسطنبول، حللنا فترة في الفندق، ولم نجد بيتاً يناسبنا، فدعتنا خالتي جوهر قائلة: إني

أشعر بالضيق لوحدي في هذا البيت الكبير. فتعالوا نسكن سوية، وبسبب فارق السن الكبير بينها وبين والدتي، كانت والدتي تسمع كلامها، وتطيعها، وهكذا انتقلنا إلى هذا البيت، وبدأنا العيش سوية. وكان ابنها الكبير في أمريكا، أما ابنة خالتي وهي في سن والدتي تقريباً، فكانت متزوجة وتقطن في ماجكا.

مرت هكذا سنتان. وفي صباح أحد الأيام، لم نكن أنا ووالدي قد خرجنا إلى العمل بعد، وفيما كنت أنتعل حذائي عند المدخل، قُرع الباب، ففتحته، وإذ بشرطي يحمل بيده حقيبة يسألني:

- هل يقطن جوهر هنا؟

تضايقت من الشرطي الذي لفظ اسم جوهر هكذا. إذ كانت خالتي جوهر في ذلك الوقت في الرابعة والسبعين من عمرها. وكانت سيدة مسنة محترمة من سيدات اسطنبول. وكان جميع أهالي صاري بر يطلقون عليها اسم السيدة. «السيدة جوهر» «السيدة الكبيرة» ولا أحد هنا يجهلها، بل إن كثيرين لا يعرفون اسمها لذلك ينادونها السيدة. ويقولون بيت السيدة.. حديقة السيدة.. وهكذا. عندما يُلفظ اسم السيدة فالجميع يفهم أن المقصودة هي خالتي جوهر.

سألت الشرطي:

- ماذا ستفعلون لها؟

- نادوه، فهو يلزمنا..

لم تكن خالتي جوهر لتتحرك من مكانها في تلك الفترة، هي ليست مقعدة، ولكن لراحتها الزائدة، ولسمنتها المفرطة ولسنها المتقدمة، صارت كأنها نصف مقعدة، فقلت للشرطي:

- لا تستطيع المجيء، أخبرني ماذا تريدون.

وحضر والدي على أصواتنا، وأكد هو أيضاً للشرطي قائلاً:

- لا تستطيع المجيء.

- ولماذا لا يستطيع المجيء..؟ نحن نعرف كيف نُحضر الشخص الذي نريده.

فأجابه والدي: هيا أرني كيف ستحضرها؟

- هل تعني أنك تمانع قوة القانون؟

- لا لا.. إنها بدينة جداً، ولا تستطيع النزول إلى الطابق السفلي.

- وهل يمكن أن يكون الشاب بديناً، لهذه الدرجة؟ وكيف لا يستطيع هبوط السلالم؟

- شابة؟ أية شابة؟ لقد تجاوزت السبعين..

اتسعت عينا الشرطي، وراح يقرأ ورقة بيده، ثم قال:

- لكن المدوَّن هنا أنه في الرابعة والعشرين من عمره، ثم ألم يلتحق بالجندية أبداً حتى سن السبعين هذه؟

- من؟

- جوهر.

- ماذا تقولون؟ إن السيدة جوهر امرأة.

- اللّه، اللّه، إن شعبة التجنيد تبحث عنه على أنه شاب متخلِّف عن الخدمة. إذاً لا بد أن جوهر هذا جوهر آخر.

لكن أمي المولودة والمترعرعة في صاري ير قالت:

- لا يوجد في هذه المنطقة أحد آخر باسم جوهر.

نظر الشرطي ثانية في العنوان المدون على الورقة التي بيده، تماماً العنوان هنا، عنواننا نفسه، خامره الشك فراح يخاطبنا:

- فليحضر، أرجوكم، فالجندية في النهاية واجب وطني وقد أديناها جميعاً، ولا يمكن التهرب منها، فيد الدولة تصل إلى كل مكان. وسيلقى القبض عليه أينما هرب.

بدأ الشرطي بنصائحه وكان سيستمر بها، لولا أن قاطعه والدي قائلاً:

- هي لا تستطيع النزول، تفضلوا أنتم واصعدوا إلى الطابق العلوي لتروها.

فتدخلت أمي قائلة:

- لكن معذرة، أرجو أن تتلطف وتخلع حذائك، فهي عصبية المزاج جداً تقيم الدنيا ولا تقعدها.

كانت عملية خلع حذاء الشرطي، وكاسيتي ساقيه، عملية صعبة، صعد بعدها الرجل إلى الطابق العلوي، ولما رأى خالتي جوهر جالسة في مقعدها والبطانية على ركبتيها، تملكته الحيرة والدهشة.

وكنا نظن أن خالتي جوهر ستحتد عندما تعلم أنها مطلوبة لكونها هاربة من الجندية، لكنها لم تحتد، بل ضحكت واعتبرت الموضوع كله مزحة. وراح الشرطي يسألها وهو يدقق في الورقة التي بيده:

- اسمك؟

- جوهر.

- صحيح وكنيتك؟

- ين أوغلو.

- وهذا صحيح. اسم أبيك؟

- ناظر قصر طوب خانه حليم باشا..

- صحيح. هنا أيضاً حليم.. اسم أمك؟

- وسامَتْ.

فصاح الشرطي:

- الله، الله، كل المعلومات مطابقة، عدا عمرك، وكونك لست رجلاً،

سيدتي، أرجو أن تحضري لنا صورة عن قيد نفوسك أصولاً، ونحن بدورنا نكتب ونعلم شعبة التجنيد بالأمر.

وكما قال الشرطي أخرجنا صورة عن قيد نفوس خالتي جوهر أصولاً وسلمناها للمخفر. وبعد حوالي خمسة عشر يوماً أو أقل، حضر ذاك الشرطي نفسه برفقة رئيس المخفر الذي كان يعرف خالتي لوجوده في هذا المخفر منذ فترة طويلة، والذي خاطبها قائلاً:

- سأحرر محضر ضبط في الموضوع يا سيدتي.

فقالت خالتي:

- لمَ محضر الضبط ما دمت تعرفني؟

- إنه محضر ضبط «أصولاً»..

وتم تحرير محضر ضبط بكون خالتي جوهر سيدة، وليست رجلاً، ووقعنا المحضر نحن أيضاً إلى جانب توقيع رئيس المخفر والشرطي.

مرت فترة أخرى، وإذا بعنصرين من عناصر الشرطة العسكرية يحضران بصحبة شرطي يُبلغنا تعليمات رئيس المخفر:

- سنزعج السيدة، ولكن عليها مراجعة شعبة التجنيد «أصولاً».

وفيما كنا سنحتج ونصرخ:

- ما معنى هذا؟

قال الشرطي باسطاً أسارير وجهه:

- «أصولاً» يا سيدي.

إن طريقة لفظ كلمة «أصولاً» وإطلاقها على أي إجراء. كانت توحي لنا بما يعني، لا تهتم، لا تفكر بالموضوع، لا يكلف شيئاً، إجراء ثانوي لا أهمية له، ولكنه مع ذلك يجب أن يتم.

وهكذا قالت خالتي جوهر:

- لا بأس، ما دام الأمر «أصولاً» فلنذهب ولنرَ..

كان وصول خالتي جوهر إلى شعبة التجنيد عملاً شاقاً، إذ حملناها هي وكرسيها ونزلنا بها السلالم، ثم أصعدناها إلى السيارة، وذهبنا معها إلى شعبة التجنيد، كان رئيس شعبة التجنيد ضابطاً برتبة عقيد وجَّه بعض الأسئلة إلى خالتي التي أجابته قائلة:

كان زوجي ضابطاً برتبة لواء، وقد توفي منذ عشرين سنة، كيف يمكنكم أن تستدعوا سيدة مثلي في الرابعة والسبعين من عمرها إلى الجندية؟ أنا أرملة ممدوح باشا.

ما إن سمع العقيد اسم «ممدوح باشا» حتى هبَّ من مكانه واقفاً، وانكبَّ على يدي خالتي جوهر وهو يقول:

- أوَّه يا سيدتي. أرجوك يا سيدتي، أم تعرفيني؟ إن ممدوح باشا ولي نعمتي.

كان هذا العقيد ملازماً تحت إمرة ممدوح باشا، وهو يعرف خالتي جوهر منذ صباها في تلك الأيام.

سررنا جداً لكون رئيس شعبة التجنيد من معارف خالتي جوهر، فهي ستتخلص الآن من مشكلة التخلف عن الجندية، لكن العقيد بادرها:

لا تنزعجي يا سيدتي، فمثل هذه الالتباسات تحدث غالباً بين فترة وأخرى. لكن لي رجاءٌ واحدٌ، إذ يجب تسوية قيدكم في سجلات دائرة النفوس «أصولاً» هذا كل ما في الأمر.

فأجابته خالتي جوهر محتدة:

- ما هذا؟ في المخفر يعرفون أنني امرأة ومع ذلك يرسلونني إليكم. وأنت تعرفون وضعي قبل أربعين سنة، وترسلونني إلى دائرة النفوس.

- «أصولاً» يا سيدتي.. «أصولاً».

لفت انتباهي أن كل من كان يلفظ كلمة «أصولاً» كان يبسط أسارير وجهه. غادرنا شعبة التجنيد، ومن يومها صار عناصر الشرطة، والشرطة

العسكرية، والحراس الليليون، يحضرون إلى بيتنا كل يومين أو ثلاثة وينذروننا:

لم يصل القيد الجديد من دائرة النفوس بعد، إذا لم يصحح الخطأ فسوف نضطر إلى سوقها للخدمة العسكرية.

في الحقيقة مسَّنا خوف كبير، فهم جادُّون في أنهم سيسوقون للخدمة العسكرية خالتي جوهر البدينة مثل القربة، والبالغة الرابعة والسبعين من عمرها، وصلت في البداية ابنتها وصهرها. وذهبنا جميعاً إلى دائرة النفوس، وإذا بمدير الدائرة زميل دراسة لصهر خالتي، بل إنه زار خالتي في بيتها مرتين وقبَّل يدها، فبادرنا قائلاً:

- أنا أعرف السيدة جوهر.

- تنفسنا الصعداء.. ولم يترك المدير الموضوع للموظفين، بل تابعه بنفسه فأحضر السجلات إلى مكتبه، وطلب لنا شاياً، وراح يقلّب في سجل ضخم، وبعد حين قال:

- نعم هناك خطأ حاصل، فبدلاً من أن يُكتب تاريخ الميلاد سنة 1301 كُتب خطأ 1351، وهكذا يُصبح عمر السيدة 24 عاماً بدلاً من 74 عاماً، ثم إنهم ظنوا اسم جوهر اسم ذكر.

تضاحكنا جميعاً وقد اتضح لنا الخطأ والالتباس الحاصل. وفيما كنا نغادر قال مدير النفوس:

- والآن يا سيدتي عليك مراجعة المحكمة لتسوية هذا الخطأ.

- أرجوك.. محكمة ماذا؟

- «أصولاً» يا سيدتي، محكمة «أصولاً».. فما لم يصدر قرار عن المحكمة فإننا لا نستطيع تعديل شيء.

- وهل أنا التي ارتكبت الخطأ يا سيدي؟ فليراجع المحكمة من ارتكب هذا الخطأ.

- سيدتي هذه المحكمة ليست شيئاً هاماً، إنها محكمة «أصولاً».

عدنا إلى البيت، ولم ينقطع عن باب بيتنا عناصر الشرطة والشرطة العسكرية، وكان يُخيَّل إلينا أنهم سيمسكون بيد الخالة جوهر ويسوقونها إلى الخدمة العسكرية، ولما لم نفلح في حل هذه المشكلة، أرسلنا برقية إلى ابنها في أزمير وقلنا له: سوف يسوقون أمك إلى الخدمة العسكرية، احضر بسرعة.

فعلاً حضر الرجل على عجل ومعه وزوجته وأولاده. وصرنا في هذه الفترة نُخفي الخالة جوهر خوفاً من القبض عليها وسوقها إلى الخدمة. فهم سيسوقونها إلى الخدمة العسكرية لا محالة إذا عثروا عليها. وقد جمعتنا الخالة يوماً وقالت:

- ليس في الأمر مزاح، سيأخذونني إلى الجيش وهم يقولون «أصولاً»، «مصولاً».. فانتبهوا جيداً وتيقظوا.

وكَّل ابن خالتي الصغير القادم من أزمير محامياً شهيراً، ولأن الحظ يخدم الإنسان أحياناً، فإن الحاكم الذي سينظر في القضية كان للصدفة من أبناء حي صاري ير، وقد ترعرع وشبَّ على يدي خالتي. ولم يكن يخرج من بيتها في طفولته.

حلَّ يوم المحاكمة. وجلست خالتي جوهر على مقعدها في المكان المخصص للمتهمين. وبدأ المحامي مرافعته.

- سيدي القاضي، من متابعة السيرة الحميدة لموكلتي يُفهم.

سعى الرجل جاهداً ليثبت أنها ليست متخلفة عن الخدمة العسكرية، وأنها امرأة، وأن عمرها أربعة وسبعون عاماً..

وبعد وقفتين قصيرتين قررت المحكمة الاستماع إلى الشهود.

هرعنا جميعاً إلى بيت الحاكم، الذي انكبَّ على يدي خالتي جوهر التي انفجرت في وجهه كالبارود قائلة:

- ما هذا؟ ألا تعرفني أنت شخصياً؟ فأي شهود تطلب مني؟

- معذرة يا خالتي العزيزة. «أصولاً». «أصولاً». يجب الاستماع إلى شهود، يكفي إيجاد شاهدين.. «أصولاً»..

عندما فشلنا جميعاً الابن، والصهر، وابن الأخت، والأخ، والكُنة، أرسلنا رسالة بالبريد الجوي إلى ابن خالتي الكبير في أمريكا، احضر بسرعة، إنهم يسوقون أمك إلى الخدمة العسكرية، وجاءنا الجواب بعد أقل من أسبوع. هل أنتم مجانين؟ فأرسلنا إليه. بلا مجانين، بلا عاقلين، إنهم يسوقون أمك إلى الخدمة العسكرية.

حضر الرجل من أمريكا ومعه زوجته وأولاده، ولما سردنا عليه تفاصيل الموضوع جُنَّ جنونه، وصاح فينا محتداً.

- يا عديمي النفع؟

ورحنا جميعاً نبحث عن شاهد، والمفروض أن عمر الشاهد الذي سيشهد بأن عمر خالتي جوهر أربعة وسبعون عاماً، يجب أن يكون تسعين عاماً على الأقل، وكانت إجابات الناس الذين قصدناهم متعددة:

- أنا لا أستطيع الشهادة، فقبل أربعة وسبعين عاماً لم يكن أبي قد ولد بعد.

- يا سيدي إنها شهادة مطلوبة. «أصولاً» لا تقل أربعة وسبعين قل سبعين قل ستين، قل خمسين.. قل ما تشاء.. «أصولاً».

ومنهم من قال:

- الله موجود. أنا لا أشهد زوراً على شيء لا أعرفه.

وآخر قال:

- سأقع في مصيبة إذا كشفوني، فعقوبة الشاهد الكاذب كبيرة.

وبعد بحث وجهد جهيد عثرنا على شاهدين، أحدهما في الخامسة والخمسين من عمره، والآخر قريب من الستين، واستمعت المحكمة إلى

الشاهدين، لكن الحاكم قرر هذه المرة إرسال خالتي إلى الطبابة للكشف عليها، والحصول على تقرير طبي بكونها امرأة، وكان ابنا خالتي، وابنتها، وأحفادها الثمانية، يجلسون في قاعة المحكمة، عند صدور هذا القرار.

ذهبنا مجدداً إلى بيت الحاكم، لكن دون جدوى.. إذ قال:

- يا روحي، أنا أيضاً أعرف أن خالتي جوهر امرأة، فقد ولدت وتربيت على يديها. ولكن ما باليد حيلة، إذ يجب معاينتها والكشف عليها «أصولاً».. هذا إجراء يتبع «أصولاً».

وفيما كنا نتابع إتمام الإجراءات الأصولية هذه كانوا من ناحية أخرى يضايقوننا ويشددون علينا بأنهم سيسوقون الخالة جوهر إلى الخدمة العسكرية وكنا نرجوهم:

- أمهلونا قليلاً..

أية مهلة يا عالم.. لقد مضت شهور.

وهل تسير الأمور عندنا بسهولة ويسر؟

أما الخالة جوهر فقد رفضت وأصرت قائلة:

- لن أسمع بالكشف على أنوثتي بعد هذا العمر.

وصرنا نحن نتوسل إليها هذه المرة:

- رجاءً يا خالة جوهر، هذا الكشف «أصولاً».. وليس كشفاً حقيقياً، إنه «أصولاً».

سيتم الكشف الطبي في مشفى رسمي، وإن أقبل حظ الإنسان ركض ركضاً. فالطبيب النسائي الذي سيقوم بالكشف كان من أقرب أصدقاء ابن خالتي الكبير، أما رئيس أطباء المشفى فكان قد ناله من معروف زوج خالتي ممدوح باشا الشيء الكثير، بل إنه هو الذي أدخله الكلية العسكرية.

أخذنا خالتي جوهر إلى المشفى للمعاينة، فبادر الطبيب المختص إلى تقبيل يدها. ثم قال:

- لا يمكن المعاينة اليوم.

- لماذا؟

- سيدتي، لا توجد لجنة هذا اليوم. ومعاينتي وحدها لا تكفي، إذ يجب أن تكون اللجنة الطبية موجودة.

فأجابه ابن خالتي:

- يا أخي لجنة ماذا؟ ألا تعرف أنت أن أمي امرأة؟

- أيمكن أن لا أعرف يا أخي؟ طبعاً أعرف. لكن هذا الكشف «أصولاً».. وإذا قلنا أن اللجنة ستكشف، لا نعني أنها ستكشف فعلاً.. ستكشف «أصولاً».

الجميع كانوا يعرفون أن خالتي جوهر ليست رجلاً بل هي امرأة، وأنها في الرابعة والسبعين من عمرها وليست في الرابعة والعشرين، ومع ذلك فالجميع كانوا يحيلون المسألة من واحد إلى آخر «أصولاً» بحيث لم نستطع بشكل من الأشكال إثبات أنوثة خالتي جوهر أم الأولاد الثلاثة وجدة الأحفاد الثمانية.

أخيراً مثلت الخالة جوهر أمام اللجنة الطبية، لم يلمس أحد من الأطباء حتى يدها، بل لم يجسّ أحد نبضها، وزودونا بتقرير موقع من أعضاء اللجنة الطبية السبعة يثبت كون الخالة جوهر امرأة. انتهى الموضوع، ولم يبقَ إلا حكم المحكمة. لكنهم لم يكفوا أبداً عن مضايقتنا والتأكيد بأنهم سيسرقون الخالة إلى الخدمة العسكرية.

حلّ يوم المحاكمة، وعدانا نحن الأقارب القريبون، غصت قاعة المحكمة بالأقارب البعيدين، وبالأصدقاء، وبالمعارف البعيدين، وبمعارف المعارف، وبالمهتمين، وبمن لا نعرفهم، لأن الصحافة تابعت قضية الخالة جوهر، وبسبب إجراءات الأصول التي استمرت سنة لم يعد هناك من لم يسمع بالقضية.

تُلي التقرير الطبي في المحكمة، وفي اللحظة التي بدأ فيها الحاكم النطق بالحكم، انتفضت الخالة جوهر من مكانها فجأة وصاحت:

- أنا رجل؟

وجمت القاعة للوهلة الأولى، ثم سرت فيها الابتسامات والضحكات، بينما تابعت الخالة جوهر:

- أنا رجل «أصولاً»، وسأذهب إلى الخدمة العسكرية، هؤلاء الشهود، وهذه التقارير كلهم كاذبون..

أصدرت المحكمة قرارها بكون الخالة جوهر امرأة، لكنها منذ ذلك اليوم وهي تظن نفسها عريفاً. وتفرض على كل من في البيت بأني ينادونها بالخال جوهر، وعمدت فأخرجت ألبسة زوجها ممدوح باشا العسكرية القديمة من الصندوق، وارتدتها، وتمنطقت سيفه، وصارت تدرب مجموعتها من الصباح حتى المساء.

ومن الطابق العلوي جاءنا ثانية الصوت العجوز النشاز المزعج:

- الهدف الشجرة المفلطحة.. أمام سر! الله الله الله..!

في بيتنا ضيوف أمريكيون[1]

عندما دعانا السيد فرانك إلى الطعام في منزله، كي لا أبقى تحت واحدة، قلت له مجاملاً أثناء وداعه:

– تفضلوا وزورونا أنتم أيضاً، سننتظركم على العشاء يوماً.

فأجاب الرجل وزوجته معاً:

– نعم نأتي.

قفز قلبي من مكانه عندما قالا نأتي.

– سوف نعلمكم فيما بعد موعد زيارتنا لكم. أردف السيد فرانك.

كان أول عمل لنا، أن ننشر في الحي نبأ زيارة الأمريكيين لنا في بيتنا، فإن صادفني أحدهم في الطريق وسألني:

– إلى أين تمضي مسرعاً هكذا يا حسن بيك؟ كنت أجيبه:

– سوف يزورنا في البيت ضيوف.. ضيوف أمريكيون.

لم يبقَ في الحي أحد لم يسمع الخبر. حتى البقال جواد سألني:

– ما شاء الله يا حسن بيك، سمعنا أن ضيوفاً أمريكيين سيزورونكم، هل صحيح ما سمعناه؟

---

1 – قصصت هذه القصة القصيرة مع قصة خمسة وعشرون قرشاً وقصة لو عصرت الصخر لفجرت ماءه، من مجموعة كيف ينقلب الكرسي؟ في أمسية أدبية في النادي العربي الفلسطيني بحلب مساء الأحد 1995/1/8 ضمن أيام الأحد الثقافية والفنية التي دعا إليها النادي تضامناً مع أبطال الحجارة

وبلا مبالاة مصطنعة أجبته:

- هي هي.. نعم سيأتون.

أما جيراننا ساكنو الطابق السفلي تحت بيتنا فكانوا ينفجرون غيرة وحسداً لأن ضيوفاً أمريكيين سيزوروننا. وفي إحدى الأمسيات وفيما كنت أصعد السلالم بادرني جاري صبري بيك، ساكن الطابق السفلي:

- سمعنا، الله يعطيكم، أن ضيوفاً أمريكيين سيزورونكم.

- سيزورونا نعم.. ولا بد أن يأتوا، أجبته، وتابعت صعودي.

وأما الحاقدون ذوو القلوب السوداء فقد نشروا الأقاويل عنَّا، ومنها قولهم بأنه لن يزورنا ضيوف أمريكيون ولا شيء، وإنما نحن الذي بثثنا هذه الدعاية لكني نزيد مقدار اعتمادنا لدى البقال والجزار، ولكي ترتفع مكانتنا، فلا يلحا بمطالبتنا بدفع الفواتير.

سمعت كل الأقاويل، ومنها قول الصيدلاني ممدوح:

- كذب، زيارة الأمريكيين له كذب، سوف يأتي إلى بيته بصديق له، طويل القامة، أشقر اللون، لا كرش له ولا إليه، ويخدعنا بقوله: زارني ضيف أمريكي، ولكن هل نبلع هذا؟

سأريكم ليأتِ هؤلاء الأمريكيون، وإن لم أجعلكم تتفرجون عليهم من ثقب المفتاح، فأنا لستُ حسن.

لو قالوا: الريح شديدة اليوم..

كنت أرد: آه.. للأسف.. كان الأمريكيون سيزوروننا اليوم.

حتى إن لم يتكلم أحد شيئاً، كنت أسأل من حولي:

- هل ستمطر اليوم يا ترى؟

فإن أجابوا:

- يبدو أنها ستمطر.

كنت أضرب يدي على ركبتي قائلاً:

- وا أسفاه، وا أسفاه، كان الضيوف الأمريكيون سيزوروننا اليوم، وا أسفاه، أرأيتم؟

وإن أجابوا:

- لا يا عزيزي الجو ليس ماطراً.

كنت أصطنع الارتياح قائلاً:

- الحمد لله، الأحسن أن لا تمطر، فسيزورنا اليوم ضيوف أمريكيون.

هكذا حتى صار الذي يراني لا يسألني، كيف حالك؟ وهل أنت بخير؟ بل يسألني:

- هل جاء ضيوفكم الأمريكيون يا حسن بيك؟

- لم أترك أحداً من الأصدقاء والمعارف حتى البعيدين في المهجر أو في أنقرة أو في إزمير، والذين لم أبحث وأسأل عنهم من سنوات، أرسلت لهم الرسائل وأعلمتهم بشكل ما بأن ضيوفاً أمريكيين سيزوروننا.

وجاءنا الخبر أخيراً: الأمريكيون قادمون يوم السبت هذا، فانتابتنا حالة من الارتباك، ووقفت زوجتي تصرخ:

- كم من مرة قلت لك لنترك هذا البيت؟ وهل هذا بيت لائق للسكن؟ انظر الآن، وها هم الأمريكيون قادمون، ماذا سنفعل؟ لقد افتضحنا وانتهينا..

أما أمي فقد اشتدّ عبوس وجهها، وفقد البيت نظامه وجوّ الألفة فيه، وكان الجميع يرددون:

- سوف نفتضح فضيحة.. لو كانت فضيحتنا أمام واحد منّا لهان الأمر. لكننا سنفتضح أمام أمريكيين.

وبسبب ذلك كثرت شجاراتنا وانتشرت أخبارنا في الحي كله، وكثرت الأقاويل عنا:

- لماذا؟ وعلى أي أثاث لديهم، يدعون أمريكيين إلى بيتهم؟

وصارت شجاراتنا تنشب حتى أمام الضيوف. وكان لي صديق منذ أيام الطفولة اسمه راغب، جاء ليلة مع عائلته ليسهر عندنا، فبدأنا الشجار أمامهم. إذ تشبثت زوجتي بسؤال راحت تكرره ولا تحيد عنه:

- لماذا تدعو أمريكيين؟

ولأنني غير راضٍ عن فعلتي، صرخت:

- الله الله، يا عالم، هل دعوتهم هكذا فجأة؟ هم دعوني إلى الطعام، وأثناء الوداع قالوا لي: سنزوركم نحن أيضاً في إحدى الأمسيات القادمة. ماذا كان عليَّ أن أقول؟ هل كان يجب أن أقول لا يمكن، فليس في بيتنا أثاث جميل، ونحن نخجل من زيارتكم لنا؟ ثم إكراماً لله أخبروني هل هؤلاء الأمريكيون قادمون لزيارتي أم لزيارة أثاث البيت؟ لو أني اشتريت أفضل الأشياء وكدّستها في البيت فإنهم رأوا ما هو أفضل منها حتماً، فبيتهم يتوفر فيه كل شيء.

فتساءلت حماتي:

- طيب لرؤية ماذا هم قادمون؟

- هم قادمون لرؤيتي أنا .. لرؤيتي..

- وماذا سيفعلون برؤيتك؟ ثم ليت فيك شيئاً يمكن النظر إليه..

- أنتن هذا هو مفهومكن للرجل ولا تفهمن أكثر من ذلك.

ثم التفتُّ إلى راغب وسألته واثقاً من أنه سيؤيدني:

- تكلم أنت يا راغبي يا هذا، هل هؤلاء الناس قادمون لرؤية أثاث البيت، أم هم قادمون لرؤيتنا؟

لوح راغب بيده في الهواء قائلاً:

- لا .. يا رفيقي..! أولئك قادمون لرؤية بيت تركي، هل فهمت؟ وأنت لا يحق لك أبداً أن تهيننا وتخجلنا، هذا الأمر لا يحتمل المزاح يا رفيق.

الأمريكيون سيزورون بيتاً تركياً ويأخذون فكرة عن البيت التركي.. فأين مكنستك الكهربائية؟ أليس عيباً؟

انظر إلى هذا الراغب السافل.. ولك ألأنه اشترى يوم البارحة فقط مكنسة كهربائية مستعملة، وبالتقسيط، هو الآن يتبجح أمامي؟

انتشر الخبر فجأة في الحي:

«الأمريكيون قادمون إلى بيت حسن بيك لرؤية بيت تركي، هذا الحسن سيحط من شأننا جميعاً، سيُري الأمريكين بيته على أنه بيت تركي، يجب إبلاغ الشرطة».

أنا الذي حشرت رأسي في البلاء بيدي، لم يبقَ إلا أن يقدّموني للمحاكمة طيب، يعني بيتي أليس بيتاً تركياً؟

- بيتك أيضاً بيت تركي، ولكن هل يجوز أن تُريه للأجانب؟

وفي إحدى الأمسيات جاءت ابنة البقال جواد وقالت وهي تتلعثم:

- أبي يسلم عليك يا عم.

- عليكم السلام.

- يقول أبي إن ضيوفاً أمريكيين سيزورون بيتكم، يقول..

- اي؟

- لكن بيتكم ليس فيه مدفأة صالون وليس لديكم طقم موبيليا ستيل، ولا أرائك بوسائد وثيرة..

- أي نعم؟

- أبي يسلم عليكم، ويقول.. سيكون مخجلاً أمام الأمريكيين، يقول: أنا اشتريت براداً جديداً حجمه ثمانية أقدام، يقول..

- أي وبعد؟

- فليأت الأمريكيون إلى بيتنا، يكون أفضل، يقول أبي يسلم عليك سلاماً خاصاً.

لا أعرف كيف قفزت من مكاني، أما الفتاة فقد قفزت السلالم قفزاً وهربت مني بصعوبة فنجت بنفسها.

صرنا في البيت نتشاجر صباح مساء، وتنشب الملاسنات بيننا، وبعد اثنتين وعشرين سنة من الزواج قضيناها بدون مشاجرة واحدة، كدت وزوجتي نصل إلى المحاكم والطلاق.

وفي الصباح أرسل لي عامل القرميد الأسطى رجب الرسالة الصغيرة التالية:

«أخي حسن بيك

علمت حسبما سمعت بأنكم دعوتم عائلة أمريكية إلى بيتكم، لرؤية بيت تركي.

أخي حسن بيك، لأن هذه المسألة مسألة وطنية. ومسألة قومية، فإنني على قناعة بأنك عندما تعرّف الأجانب على بلادنا فإنك يجب أن تكون أكثر حرصاً على المظاهر الخارجية. بهذه المناسبة وليقيني بأنه من الأفضل أن يزور الأمريكيون بيتنا، فإنني أعلمكم بأنه مهما بلغت المصاريف التي صرفتموها حتى الآن، فإنني مستعد مادياً ومعنوياً لتعويضها لكم نقداً. أنتظر ردكم سريعاً».

مزقت الرسالة إرباً إرباً ورميتها في وجه الذي أوصلها، وبعدها التقيت بالأسطى رجب في الزقاق فبادرني:

- ما هذا؟ لمَ غضبت يا أخي، هل قلنا شيئاً سيئاً؟ في النهاية هذا موضوع وطني.. وفي هذا لا يوجد أنت وأنا بل يوجد نحن. يا أخي لقد دخلت ابنتي الكلية الأمريكية هذه السنة، أما أنتم فليس لديكم حتى من يقول «أوكي» أو يقول «يس» بلغة أمريكية سليمة، ولقد اشتريت مؤخراً ثلاجة خضراء اللون مخصوصة للرؤية.. إن قلت بيك آب. يوجد، وإن قلت

غسّالة كهربائية، عندنا أحسنها .. وفوق ذلك سندفع لك مالاً .. ماذا تريد؟ أتريد مصيبة من الله؟

سرت متابعاً طريقي.. واستمرت الاقتراحات تصلني، منهم من يقول لدينا ثلاجة ومنهم من يقول لدينا غسّالة كهربائية فليتفضل الأمريكيون.

وهكذا اقتنع أهل بيتي بالفكرة، إذ قالت زوجتي:

- هم لا يعرفون بيتنا على كل حال.. فلنأخذ الأمريكيين إلى بيت آخر على أنه بيتنا.

فكرت ملياً. وفجأة خطر ببالي خاطر فقلت:

- يا عالم، أنتم ألا تعرفون جيراننا؟ إذا أخذنا الأمريكيين إلى بيت آخر على أنه بيتنا، فإن أصحاب البيت لن يسكتوا، وسيتعمّدون أن يزل لسانهم ويقولون بأن البيت بيتهم.

فأجابت حماتي العاقلة:

- هؤلاء يقولون، ولو كنت أنا لقلت، ولكي يصدِّق الأمريكيون فإنهم قد يبرزون عقد البيت.

أقبل يوم الجمعة، وسيحضر الأمريكيون الليلة القادمة، فبدأنا بدهن البيت. تركنا أشغالنا وأعمالنا، وانهمكنا صغاراً وكباراً في تزيين البيت. انتهينا من الدهان فتعاونّا جميعاً على الكنس والمسح. وجاءنا خبر من الأمريكيين:

«لسبب طارئ يمنعنا، نعتذر عن الحضور هذا السبت».

أوووه زفرنا زفرة ارتياحٍ عميقةٍ، مازال أمامنا أسبوع من الزمان، نُعيد فيه ترتيب بيتنا من جديد.

ركضت هنا وهناك لشراء بعض الحاجيات بالتقسيط، وإذ ببيع التقسيط متوقف، فقط يخيطون الألبسة بالتقسيط ولا شيء غير ذلك، وما دام الأمر كذلك هل أفصِّل عشر بزات وأعلقها على الجدران هنا وهناك؟ لا أعرف ماذا أفعل؟ إذ ما عدت أفكر بالأمريكيين، بل كنت أفكر

في إغلاق أفواه الجيران الذين وقعنا بين ألسنتهم.. فهم لا يفتأون يرددون «نحن لنا كرامتنا واعتبارنا» ولا يزيدون على ذلك.

انهمكنا جميعاً في ترتيب وتزيين البيت، وتمكنّا من شراء سجادة بالتقسيط بمساعدة أحد الأصدقاء، كما اشتريت شمعداناً نقداً.

وجاءنا خبر يقول: لقد انشغل الأمريكيون ولن يستطيعوا الحضور هذا السبت أيضاً، وسيأتون يوم السبت القادم.

ومرَّ أسبوع آخر، ولما تأجلت زيارة الأمريكيين لسبت قادم آخر، قلت لزوجتي:

- سيدتي لا بد أن في الأمر شيئاً، إن زيارة هؤلاء الأمريكيين صارت مثل المساعدات الأمريكية.

- أي شيء في الأمر؟

- أو تسألين أي شيء؟ لقد ذهب أحد خصومنا إلى الأمريكيين وقال لهم: «هؤلاء لا يملكون حتى كرسياً للجلوس تعالوا إلى بيتنا»، وأقنع الأمريكيين بذلك وهل تسألين عن الخصوم؟

وراحت زوجتي من ناحية، وأمي من ناحية، وحماتي من ناحية ينتحبن ويندبن:

- أوَّاه.. انظر! أرأيت؟ إذن فهل تعبنا راح سدى في كنس وتنظيف البيت من أوله إلى آخره؟ ولقد علقنا الستائر الجديدة.. أوَّاه.. وإذا لم يأتوا.. بل لقد دهنا البيت.. آه، يا حرام.

وراحت حماتي تبتهل بالدعاء:

- الله يعمي عيون الأعداء إن شاء الله..

إيه ننتظر سبتاً آخر، وهذه المرة راح أهل البيت يرددون بأنه ليس لديهم ما يلبسونه أمام الأمريكيين. نحن ثمانية أشخاص في البيت، فكّروا ماذا يعني شراء بدلة لكل شخص.. وتساءلت زوجتي:

- هل أفصِّل بدلة سهرة يا ترى؟

فردت أمي:

- إذا فصَّلت كنّتي بدلة سهرة، سأطلب بدلة سهرة لي أيضاً.

وفاجأتني حماتي بقولها:

- إذا كان الأمر كذلك، فأنا أريد معطفاً شتوياً!

- يا عالم هل يُلبس معطف داخل البيت وفي منتصف الصيف؟ ولكن كيف تُفهمها ذلك؟

- طالما الفرصة سانحة الآن، خيِّطوا لي معطفاً، فلا الأمريكيون سيأتون ثانية إلى بيتنا، ولا أنتم ستخيطون لي معطفاً بعد الآن..

بذلنا كل ما بوسعنا وحاولنا جهدنا، لكن البيت مازال خاوياً، ألا يؤجّرون الأثاث كما يؤجّرون الألبسة يا ترى؟ بحثنا وفتّشنا وسألنا، إنهم لا يؤجّرون أثاث البيت. فلجأت إلى المعارف:

- أمان يا رفاق، سيزورنا ضيوف أمريكيون إن شرف الواحد منّا يعني شرف الجميع. أقبّل عيونكم، أقبّل أرجلكم، أعيروني أشياء لليلة واحدة. الإنسان يلزم الإنسان، ولا بد أن تحتاجوا إليَّ يوماً..

فقال أحدهم:

- أنا أُعيرك السجادة، ولكن تعطيني رهاناً، وعندما تُعيد السجادة تسترد رهانك، انظر، لا أريد ولا بقعة صغيرة، وإذا حدث للسجادة أي شيء لا أرد لك رهانك..

قبلت، ودفعت له الرهان وأخذت السجادة.

وقال آخر أدامه الله:

- أُعطيك الثلاجة قبل وصول الأمريكيين بنصف ساعة، وأريدها منك بعد مغادرتهم بنصف ساعة.

- على رأسي..

وكلٌّ بشرطه، منهم من أعطاني غسّالة كهربائية، ومنهم من أعطاني جهاز البيك آب، ومنهم من أعطاني طنجرة الضغط، ولكي يراها الأمريكيون، وضعنا هذه الحاجيات في أبرز الأماكن. لكن البلاء الذي حطَّ علينا كان من سرير الجوز الذي أعارتنا إياه إحدى الصديقات، أنا والله ما طلبت السرير، زوجتي هي التي طلبته، وأجابتها صاحبة السرير قائلة:

- أنا أحب فعل الخير، ففي طهور أي ولد من أبناء الحي، يأتي الأب ويطلب سريري، فأعطيه إياه لأنال ثواباً، خذوه أنتم أيضاً..

وبعد أن تمَّ بصعوبة تأمين مكان في البيت لوضع سرير الجوز المزدوج فيه صار بهو بيتنا صالة استقبال.

وكانت ليلة السبت. كنّا قد رتبنا كل الحاجيات المستعارة في أماكنها، وبقيت الثلاجة وجهاز البيك آب. ولكي أعرف كيف صار مظهر البيت استشرت العارفين بمثل هذه الأمور، فرد الجميع قائلين:

- ما شاء الله.. هكذا فلتكن البيوت. صار يشبه تماماً البيوت في الأفلام الأمريكية.

ولاحظ أحدهم:

- فقط الثلاجة ناقصة.

ستأتي، قلت، ألا ترى هذا المكان الفارغ هنا؟ هنا سنضع الثلاجة، لقد وعد صاحبها بأن يعيرنا إياها قبل وصول الضيوف بفترةٍ وجيزةٍ.

وفيما كنّا نحمل البيك آب صاعدين به السلالم حضر الأمريكيون.. آه.. يا للتوقيت المعاكس، لا تسألوا.. باب البيت ضيق لا يسمح بدخول البيك آب، وفيما كنّا نحاول جاهدين إدخاله علق بين درفتي الباب. الأمريكيون أمام الباب ينتظرون، والبيك آب لا يدخل لنفسح الطريق

للضيوف. وبعد جهد وعناء ودفش وضرب وشدّ وجذب ولج البيك آب إلى الداخل، لا بدَّ أن طرفاً منه قد كُسر.

تقدم الأمريكيون إلى الداخل فاعترضت زوجتي طريقهم قائلة:

- من هنا يا مسيو، من هنا مسيو.. وأدخلتهم أولاً إلى غرفة النوم، ومن هناك مرَّت بتثاقل وبطء إلى البهو الذي صار صالة استقبال. وما إن جلسنا حتى سمعنا جلبة في الخارج، تراكضنا لنستطلع الأمر.. وإذ بنا نرى الثلاجة قادمة. آه.. هل هذا وقتها؟ بماذا أبرر للأمريكيين مجيء الثلاجة في هذا الوقت من الليل؟ فبادرت:

- أمان قفوا، استغنيت عنها، لا أريدها، أعيدوها.. خذوها إلى طرفٍ ما؟ لكن صاحب الثلاجة أصرَّ قائلاً:

- ما معنى هذا؟ لقد سنحت لي فرصة في الأربعين سنة مرة لأقدّم مساعدة لصديق.. هل أفوتها..؟ لا يمكن..

وصاح بالحمالَيّن اللذين يحملان الثلاجة:

- ما بكما واقفان؟ أدخلاها داخلاً!

وقالت ابنة صاحب الثلاجة شيئاً لأمريكي، فسألت المترجم الذي كنت قد أحضرته:

- ماذا تقول؟

- قالت نحن نحب مساعدة بعضنا كثيراً، ولأن جارنا لا يملك ثلاجة، فقد أحضرنا ثلاجتنا لكي لا يخجل أمامكم، إن كل الأشياء التي ترونها هنا هي على سبيل الإعارة والمساعدة.

صعد الدم إلى رأسي. لو بصقت في وجهها لقال الأمريكيون ما هؤلاء الناس! وفي تلك اللحظة تشبث ابني الصغير بذراعي.

- ما بك يا بني؟

- بابا، هؤلاء ليسوا أمريكيين.

– من أين عرفت؟

– ألم تـر فيلمـاً أمريكيـاً أبـداً يـا بابـا؟ أيـن مـسدسه؟ أيـن لبـاس الكاوبوي.. أين قبعة الكاوبوي؟

– اذهب يا ولدي، فالرجل أمريكي خالص.

– حاضـر، مـا دام أمريكيـاً فليرقـص وزوجتـه رقـصة الـروك أنـدرول ولنر..

توبة يـا ربـي.. وبدأ أفـراد عائلتنـا يتوافدون واحداً إثـر الآخـر، وكـان أحد الأصدقاء قد نبّهني قائلاً:

– لا تـدع أفــراد عائلتــك يخرجــون للأمــريكيين دفعــة واحــدة، فالأمريكيون سوف يحارون كيف تربّي هؤلاء. فالعقل الأمريكي لا يستوعب أمورنا، وسوف يحار الرجل.

كـان المفـروض أن نتـصرَّف هكـذا، لكـن مـن يـسمع؟ فمجموعتنـا النسائية لبسن وتلبّسن، وتكحّلنَ، واصطَبغْن، وجئْن يتبخترن ويتمايلن، وكأنهن مدعوات إلى حفلة عرس. بينما كانت الأمريكية ترتدي فستاناً قطنياً مزهراً، وبلا جوارب في رجليها.. جاءت ابنتي الصغيرة فقبّلت يد الأمريكية، ثم وضعتها على رأسها! مع أنني كم مرة نهيتها وعلمتها يا عالم. هيا فلنقل بأن الفتاة صغيرة. فلنر ماذا فعلت حماتي.. لقد مدّت يـدها للأمريكـي فـصافحها الأمريكـي، لكـن حمـاتي لا تـسحب يـدها، وتنتظر هكذا، حار الأمريكي في أمره، فأجبرته حماتي على تقبيل يدها، ثم رفعتها ولامست بظاهرها جبين الرجل! لقد افتضحنا فلا تسألوا أبداً.

هيا تفضلوا إلى الطعام.

ومن قبيل المباهاة اتجهت إلى الثلاجة وأردت فتحها، لكن الثلاجة لا تفتح يا جماعة وهل نعرف نحن استعمال هذه الأجهزة؟ نحن حتى لم

نوصل آخذ الثلاجة بالمأخذ الكهربائي. أيها المأخذ.. أيها المأخذ.. المأخذ في قعر جهنم. ومن هناك جاءني صوت إحدى العاقلات شغّل البيك آب. اتجهت إليه فلم أستطع تشغيله، ذهبت إلى المذياع فلم أستطع إدارة أزراره، عدت إلى الثلاجة فلم أستطع فتح بابها.. وفيما كنت أجهد في فتح باب الثلاجة، بقيت مسكة الباب في يدي، والأمريكيون يكادون يقعون على الأرض من شدة الضحك، تملّكني الغضب فصرخت في زوجتي:

- ما لك واقفة تتفرجين! لقد خجلنا أمام الأمريكيين إذ لم نستطع تشغيل أي واحدة من هذه الأجهزة، فلنشغّل هذه الغسالة على الأقل، هيا نشغلها وليروها.. وإذ بذراع الغسالة قد كسرها الحمالون أثناء نقلها، وفي هذه الأثناء صاحت أمي:

- وااااخ!

لقد فعلها الصغير على السجادة، وأمي تصيح:

- هكذا هي الحاجات العارية.. أرأيت؟ ماذا سنفعل الآن؟

أما زوجتي فقد أمسكت بتلابيب الطفل وهي تصرخ فيه:

- أين البيش، أي البيش؟ هاتوا لي الملقط؟ هل أحرق لك بيبك الآن؟

الطفل الصغير يولول باكياً وهو موقن بأنهم سيحرقون بيبه، وأنا أركض من هنا إلى هناك محاولاً تشغيل هذه الأجهزة الحديثة.

وفجأة انبعثت من الحي جلبة وضوضاء. ما هذا يا عالم؟ لقد تجمهر شبان الحي تحت نافذتنا، وراحوا يُسمعون الأمريكيين أناشيدهم، ويُنشدون بصوت واحد نشيد «خرجنا بجباه مرفوعة» وما إن ينتهي حتى يتبعونه بنشيد «الدخان يلف رأس الجبل».. انتهينا من الطعام. فقال الأمريكي وزوجته:

- نحن ذاهبان.

وصلا إلى الشارع بصعوبة. فما إن خرجا من باب البيت حتى دوت

عاصفة من التصفيق. لقد اجتمعت سبعة أحياء وراحت تصفّق تحية للأمريكيين.

هكذا تخلّصنا من هذه المسألة.. لا لا .. لم نتخلّص بعد، فالحاجات والأجهزة التي استعرناها من هذا وذاك من أجل الضيوف. لم يكن فيها شيء ما لم ينكسر أو يتعطّل أو يتّسخ.. وما زلت منذ ثلاث سنوات أعمل على سداد الديون التي ترتبت عليَّ من جرّاء ذلك.

هذه.. مشاكلنا

رأينا بقالية صغيرة. وكان البقال يملأ قنينة إحدى القرويات كازاً. ضحكت المرأة أولاً لدى رؤيتنا، ثم تبعها البقال بالضحك وقال لنا:

- هيه.. رشيد آغا ينتظركم. مقهى العريشة هناك.. اصعدوا التلة ترونه على اليمين..

كانت ضحكاتهما ضحكات استهزاء واستخفاف. فسألت:

- من يكون رشيد آغا هذا؟

- أسرعوا، أسرعوا، إنه بانتظاركم سترونه عندما تذهبون.

صعدنا التلة الصغيرة، فرأينا مقهى العريشة، هرع صبي نحونا:

- العم رشيد ينتظركم.. قالها وهرب.

استغربنا الأمر. نزلنا من التلة، دخلنا المقهى الذي كان يعجُّ بالناس:

- مرحباً يا آغاوات..

الجميع ينظرون إلينا ويضحكون، ضحكة الاستهزاء نفسها كانت تعلو وجوه الجميع.

- من هو رشيد آغا؟

- أنا هنا..

فلاح محبب، ذو لحيةٍ محددة، يجلس متربعاً على الأريكة. اعتدل في جلسته عندما رآنا، وقال:

- أهلاً وسهلاً..

- أهلاً بك، هل أنت رشيد آغا؟

- أي، أنا.

- هل تنتظرنا حقاً؟ فكل من صادفنا في الطريق قال لنا: إن رشيد آغا ينتظركم.

- هلا تجلسون، تفضلوا.. إننا ننتظر أي، لكن لستم من ننتظرهم، لما رآكم أهل القرية بهيئتكم المدنية ظنّوكم أنتم الذين ننتظرهم. ماذا تشربون؟

طلبنا لبناً رائباً، ثم أفهمناه أن سيارتنا قد تعطلت في الطريق، لذلك اضطررنا للمجيء إلى هنا سيراً على الأقدام، ولما صار كل من يصادفنا في الطريق يقول لنا: إن رشيد آغا ينتظركم تملّكتنا الدهشة والحيرة، فالتفت رشيد آغا إلى القرويين الذين ملؤوا أرجاء المقهى، وقال:

- هؤلاء ليسوا من ننتظرهم.. ألم تروا أولئك العام الماضي..

فأجابه بضعة أشخاص:

- رأيناهم، نعرف أنهم ليسوا هؤلاء.

قلت متسائلاً:

- لقد استبدّ بنا الفضول يا رشيد آغا، من هم الذين تنتظرونهم؟

- سيأتون، أينما كانوا لا بد أن يأتوا الآن.

وضع رشيد آغا أمامنا منديلاً مطرزاً مصروراً، ثم فتح الصرّة على مهل، وأخرج منها أربع علب سكائر فارغة، علبتان منها ينيجا، وعلبة كلينجيك، وعلبة بوغاز ايجي، قدم العلب لنا قائلاً:

- نحن ننتظر أصحاب هذه العلب، ولكونها أمانة حافظنا عليها.

قدّم لنا رشيد آغا علب السكائر الفارغة، فوقعت في يدي علبة كلينجيك. تفحّصت العلبة فوجدت عليها خطوطاً متشابكة.. ورسوماً بلا أشكال محددة، وأعداداً..

- ما هذه يا رشيد آغا؟

- هذه مشاكلنا..

- أية مشاكل؟

- والله مشاكلنا، فقد جرت العادة منذ أن عرفنا الانتخابات أن يطوف كبراؤنا ووجهاؤنا أدامهم الله، بالقرى والبلدات، قرية قرية، وبلدة بلدة، ويستمعوا إلى شكاوى ومشاكل القرويين. وقد جاء قادة الحزب إلى هنا العام الماضي، وقالوا: من له مشكلة فليأتِ إلى المقهى ليُسمعنا إياها. تجمهر القوم. جاء أربعة أشخاص، نزلوا من السيارة هنا، قلنا لهم: تفضلوا، سلام عليكم، عليكم السلام.. قال واحد منهم: «أيها الآغاوات، حتى الآن لم يكن هناك من يستمع إلى مشاكلكم.. الديمقراطية تعني الاستماع إلى الشعب، لذلك ها نحن قد جئنا لعند أقدامكم، فليتكلم كل من لديه مشكلة».

أوَ تسأل عن المشاكل لدينا.. بدأنا بالشرح.. وكلما أسهبنا كانوا يسرعون بالكتابة. سيدي، الملاريا.. قال أحدنا: استأصلوا الملاريا أولاً. فكتبوا «استئصال شأفة الملاريا». تدخّل المعلم بالحديث قائلاً: «إنني أُعلّم خمسة صفوف بمفردي، رجاءً أرسلوا معلماً آخر». أسرع الأربعة معاً يكتبون ويدوّنون. ومن ناحية ثانية كانوا يدخنون السيكارة تلو السيكارة. كل المشاكل التي طرحناها، أجابونا بأنها ستُحل. لم يقولوا عن أي شيء بأن هذا غير ممكن. ملْتُ على المعلم وهمست في أذنه: «أنا لا أثق بهؤلاء أيها المعلم، ما هذا؟ إنهم يدونون كل مطالبنا، ويقولون بأنها ستنفذ، تعال لنختبرهم».. وقفت فوراً وقلت: «رضي الله عنكم، لقد كتبتم كل شيء وأكملتموه. نريد أيضاً قطاراً للقرية فإن جاء القطار لم يبقَ لنا أي مطلب».

دوَّنوا هذا المطلب أيضاً خلف علب السكائر. حلَّ المساء، رمى اثنان منهم علبتيهما على الأرض، التقطت العلبتين المرميتين ودسستهما في جيبي.. تأهبوا للمغادرة، وأثناء خروجهم من المقهى رمى أحدهم أيضاً

علبته، فأسرعت فوراً والتقطتها هي أيضاً من الأرض. ركبوا سيارتهم. طارت السيارة. أيدينا تلوّح لهم. امتدت يدٌ من نافذة السيارة. طارت علبة سكائر فارغة في الهواء. أسرعت والتقطت تلك العلبة أيضاً.. وهذه هي العلب الأربعة، هل فهمت؟ علب السكائر هذه هي مشاكلنا. ولقد أرسلوا لنا خبراً بأنهم قادمون أيضاً ليستمعوا إلى مشاكلنا. ونحن ننتظرهم، سيأتون بين لحظة وأخرى.

أخذت العلب الأخرى، فرأيت أنه كُتب على إحدى علبتي الينيجا «شكران شكران ست مرات شكران ومرة واحدة شك». ثلاث نجوم مصطفة جنباً إلى جنب، ورسمة زورق، ومجموعة من المثلثات والمربعات الكبيرة والصغيرة..

أما علبة بوغاز ايجي فقد كانت عليها هذه الكتابات والملاحظات:

«رجاء من أجل صديق ابن حميك.. نقل وافي بيك إلى مكان جيد.. ضم الصهر إلى الهيئة الذاهبة إلى إيطاليا.. وإلا فسوف يُنشر ويُذاع خبر الاستقالة». «مسألة الثلاثمئة ألف مكتوبة مرتان كتابة وأربع مرات رقماً» «راقصة راقصة» مكتوبة خمس مرات.. ورسم لثمانية قلوب.

وعلى علبة ينيجا الثانية رُسمت عين كبيرة، ونرد، وكُتبت كلمات «ممكن، حاضر، ممكن، ممكن، ممكن، حاضر» عشر مرات بخط اليد وبأحرف مطبعية.

- إنهم قادمون..

- إنهم قادمون..

ترامت الأصوات من الخارج، هاج من في المقهى، نزل ثلاثة أشخاص من السيارة. قال أحدهم:

- مرحباً يا آغاوات..

وقال آخر:

- السلام عليكم أيها المواطنون..

قال الثالث:

- مرحباً أيها الرفاق..

وكما كان القرويون يضحكون منّا قبل قليل، ها هم الآن يضحكون من هؤلاء. وكانت أسنان الجميع ظاهرة.

جلسوا بجانب رشيد آغا. اثنان منهم على كرسيين والثالث على الأريكة. وبطريقة تحية القرويين وضعوا أيديهم اليمنى على صدورهم وراحوا يحيّون الكبار والصغار «مرحبا مرحباً».

قال بدينهم:

- كيف حالكم منذ العام الماضي يا آغاوات؟

فأجابه رشيد آغا عن الجميع:

- دمتم، نحن بخير.. كيف حالكم أنتم؟

- ونحن أيضاً بخير، وصرنا أحسن إذ رأيناكم أحسن حالاً، فوجوهكم جميعاً تضحك، أضحكها الله..

قال أكبر الثلاثة سناً:

- أيها الآغاوات، الديمقراطية تعني الاستماع إلى الشعب.

أخرج علبة سكائر كلينجيك، فأسرع القهواتي والتقط جمرة بالملقط لإشعال سيكارة الزائر.

- نحن نعمل بما نستمده منكم من وحي وإلهام، لقد جئنا لعند أقدامكم، فلا تتحرجوا ولا تتهيبوا، فواجبنا الاستماع إليكم. ما هي مشاكلكم، وما هي الصعوبات التي تعانون منها؟ قولوها الآن!

ساد الصمت في البداية، ثم سرت همهمة ووشوشة. وقال أحد القرويين الواقفين:

- أولاً هذه الملاريا. الناس هلكوا من الملاريا.. ما لم يتم تجفيف المستنقع، فإن رشَّ المبيدات لا يجدي.

كتب الثلاثة على علب سكائرهم. مال رشيد آغا وحدّق في كتابة الذي بجانبه وقال له:

- يا بيك، ليس حدِّي، لكنك كتبت خطأ..

أسرع الذي يدوِّن ملاحظاته على علبة بوغاز فشطب كل ما كان قد دوَّنه، وكتب من جديد أشياء على عجل. تساءل الذي يكتب على علبة كلينجيك.

- لماذا خطأ؟ تجفيف المستنقع..

- لا شيء.. خُيِّل إليَّ ذلك..

قال رشيد آغا ذلك، ثم وضع المنديل المصرور على ركبتيه، وفتحه على مهل وأخرج منه علبة كلينجيك، وأشار إلى الخطوط المتشابكة المخطوطة عليها، وأردف:

- في العام الماضي عندما ذكرنا الملاريا، كتبتم هكذا، لذلك..

تعالت الضحكات في المقهى، وضحك أولئك أيضاً، ثم قال أحد القرويين:

- نريد معلماً، فمعلم واحد لخمسة صفوف لا يكفي.

قال الذي يكتب على علبة ينيجا:

- لا يكفي.

فرد عليه رشيد آغا.

- لقد أخطأت في الكتابة يا بيك، «وأخرج من الصرّة علبة ينيجا المحفوظة من العام الماضي» في العام الماضي عندما قلنا: معلم أنت كتبت شكران، شكران، شكران..

بادر أحدهم ثم تبعه الآخران فوضعوا علب سكائرهم في جيوبهم، وأكمل رشيد آغا:

- كله موجود هنا، انظر هذه الخطوط تعني موضوع الماء، وهذه القلوب الستة تعني موضوع البطالة.. ومدَّ إليهم علب السكائر قائلاً:

- وهذه علبة البيك الذي لم يحضر معكم هذا العام.

انتصب البدين واقفاً وقال محتداً:

- ما هذا؟

- لا شيء.. وماذا يمكن أن تكون، مشاكل.. كونها مشاكل فهي مشاكلنا لكن هل هي مشاكلكم أم هي مشاكلنا، لا أعرف.

وقفوا، وكانوا يغادرون فيما رشيد آغا يوصيهم:

- لا تنس مسألة شكران، وهناك موضوع ثلاثمئة ألف.. ثم النجوم والزورق الذي لا أعرف على ماذا يدل..؟

الأشخاص الثلاثة في المقدمة، والقرويون خلفهم يتجهون جميعاً إلى السيارة، ونحن بجانب رشيد آغا. سعل أحد الثلاثة الذين في المقدمة، فقال:

- يجب ترك السكائر..

قال الآخر:

- وأنا أراها ثقيلة علي.

قال الثالث:

- يجب تركها، فهي مؤثرة.

تحركت السيارة، فوضع القرويون أيديهم على جنوبهم وراحوا يضحكون مسرورين.

لا تبكوا الأطفال

يقول سينمائيونا «إذا لم يبكِ مشاهدونا أثناء مشاهدة الفيلم، فإنهم لا يسامحوننا بثمن التذكرة التي دفعوها».

وبرأيي أن ذلك صحيح، فنحن نعرف الضحك جيداً، ونعرف البكاء جيداً، وليست لدينا حالة وسط بين هاتين الحالتين، راقبوا المارة في الطريق، سترون وجوهاً باكية، أو وجوهاً تفرقع بقهقهات كفرقعة الذرة المصرية وهي تشوى على النار.

بالنسبة للبكاء، نحن ميالون للبكاء بطبيعتنا، فالفيلم الذي لا يبكينا، والرواية التي لا تبكينا، لا يساويان عشرة قروش.

لا أحد يعرف حتى اليوم سبب هروبي من المدرسة الداخلية. ففي حين كان الأطفال يجهدون لدخول تلك المدرسة، هربت أنا منها، مدرسة داخلية مجانية، تؤمّن كل ألبستنا، وكل احتياجاتنا، فهل يجوز الهروب من مدرسةٍ كهذه؟ ولم أكن كسولاً، بل كنت مجتهداً مبرّزاً في صفي.

بعد مدةٍ طويلة، لما علموا بهروبي من المدرسة، صاروا في البيت يلحّون عليَّ بالسؤال:

- لماذا هربت؟

لم استطع ذكر سبب هروبي بأي شكل من الأشكال. أما الآن وقد مرت اثنتان وثلاثون سنة فإني أستطع القول بأني هربت من المدرسة بسبب

دموع العين.

كنت في العاشرة من عمري عندما اجتزت امتحان القبول في المدرسة وساعدني الحظ ففزت بالقرعة أيضاً بعد الاختبار، ودخلت المدرسة، مضت السنتان الأوليان بشكل جيد، لكن الأمور اختلطت عندما وصلت إلى الصف الخامس.

كان لدينا في ذلك الزمن مادة اسمها «المصاحبة الأخلاقية» عبارة عن إرشادات أخلاقية وتربوية.. وقد سمعنا من تلاميذ الصف الأعلى أن هذه المادة يعلمها معلم اسمه شكري بيك، وأنه أحسن رجل في الدنيا، فهو يتكلم من أعماقه بشكل مؤثّر، بحيث يُبكي الأطفال في كل درس ويقلب عيونهم إلى ينابيع دموع، وكان تلاميذ الصف الأعلى يؤكّدون:

- عندما يُلقي المعلم شكري درساً فإنه يجعل الصخر الذي أمامه يجهش بالبكاء، فكيف بالإنسان.

استهواني شكري بيك، لأن معلمينا جميعهم في ذلك الزمن كانوا لا يفتؤون يبكوننا. وكلما أبكونا كنا نلتصق بهم أكثر، ونتعلّق بهم بكل جوارحنا. فعندما يشرح لنا معلم مادة «سير الأنبياء» وقعة كربلاء، تعالَ ولا تبكِ، تحمَّل إن كنت تستطيع.. وفيما دموعنا تجري سيولاً يخرج معلم مادة «سير الأنبياء» من الصف، ليدخل بعده معلم مادة «العلوم الدينية». وحين كان يشرح لنا عذاب جهنم الذي سيلقاه العصاة، كنّا نحن التلاميذ الستون بأعمارنا بين الحادية عشرة والثانية عشرة، نختنق بالبكاء، وغالباً لم يكن لدي منديل، فتختلط دموعي بمخاطي، وأبكي وأنا أشرق أنفي. بعده كان يدخل الصف معلم اللغة التركية، هو أيضاً لم يكن ليتأخر عن أولئك في إبكائنا، فعندما يصف لنا مأساة شاعر الوطن نامق كمال في زنزانة ماغوسا، كانت الشهقات الصادرة عن ستين حنجرة صغيرة وآهاتها وتأوهاتها، تخرج من نافذة قاعة الصف لتشق عنان

السماء. وفي درس الموسيقا كنا نبكي بدموع تجري كأنها الجنة، ونحن ننشد الأناشيد الدينية.

لم يكن لدينا درس لا نبكي فيه، ولم يكن لدينا معلم لا يبكينا. حتى في درس الرياضة. الذي كان يسمى آنذاك «التربية البدنية» كنّا نبكي. هل تسألوا كيف؟ معلم الرياضة الذي لم يكن لديه ما يشرحه لنا كان ينهال علينا بالضرب فيبكينا.

كنّا نقدّر إمكانية أي معلم وأهميته بمدى قدرته على إبكائنا. فإذا قال تلاميذ مدرسة أخرى:

- عندما يشرح معلمنا درساً، تسيل الدموع من عينيك وأنت تسمعه.

كنا نتباهى قائلين:

- وهل هذا شيء؟ نحن لدينا معلم، لو ترونه، إنه يبكي الحجر والتراب أثناء إلقاء درسه.

كانت الدموع التي تسيل من عيوننا أكثر من المياه التي نشربها.

لذلك استهواني شكري بيك معلم مادة «المصاحبة الأخلاقية» فبهذه الشهرة المتميزة التي اكتسبها من بين كل هؤلاء المعلمين الذين يبكوننا بهذا الشكل، من يعرف كيف سيبكينا هو يا ترى؟

كنّا جميعاً قد تجهزنا جيداً للبكاء في درس شكري بيك الذي سمعنا عنه دعايات كثيرة سلفاً. سيأتي شكري بيك في الحصة الرابعة، في ذلك اليوم، كانت الحصة الأولى درس تاريخ. شرح لنا معلم التاريخ شجاعة أجدادنا وبطولاتهم، بصورة لم يعد معها عدم البكاء بأيدينا، ثم كانت الحصة الثانية لدرس اللغة التركية.. معلمها أيضاً أبكانا وهو يشرح لنا مرثية رجائي زاده في رثاء نجاد ابن الأستاذ أكرم الذي توفي في مقتبل العمر. أما معلم الجغرافيا الذي جاء في الحصة الثالثة، فقد شرح لنا كيف كانت إمبراطوريتنا ممتدة قديماً في ثلاثة أرجاء المعمورة، ثم شرح ما آلت

إليه وهي تتقلص شيئاً فشيئاً، بحيث يبكينا حتى ظننا أنه لم تبقَ في مآقينا دموع.

حضر شكري بيك في الحصة الرابعة، قامة قصيرة، ورأس كبير، يلبس بدلة رسمية، عبارة عن بنطال أسود مقلم بأبيض. وسترة من الجوخ الأسود. وقميص أبيض بقبة منشاة، وربطة عنق سوداء، وحذاء أسود لماع، ومنديل أبيض يظهر مثلثه من جيب سترته العلوي. رأسه يلمع لمعاناً، إذ كانت بضع شعرات معدودات طويلات، مصففات بعناية، تغطي صلعته من الصدغ الأيسر إلى اليمين.

دخل غرفة الصف بخطوات تحاذر دهس نملة، وجلس على الكرسي.

ونتيجة لما سمعناه عنه مسبقاً، كنا على يقين بأن شكري بيك سوف يبكينا، بل كنت أعتقد بأننا سنبكي ولو بقي جالساً على كرسيه هكذا دون أن يتكلم.

يا إلهي، ها قد بدأ شكري بيك بالكلام! لا أعرف الأطفال الآخرين. أما أنا فقد تدفقت الدموع من ينابيع عيني.. كنت أظن أن ينابيع عيني قد جفّت في الدروس الثلاثة السابقة، لكن ها أنذا أبكي، ولم يعد بإمكاني أن أتمالك نفسي.

وعندما خرج شكري بيك كنت نصف مغمى عليّ من شدة البكاء.

شبّهت شكري بيك بضياكوك آلب، فهو رجل على شاكلته، وهو غني حسبما سمعنا عنه، كذلك هو مدير لإحدى المدارس العليا، لكن لكونه هو أيضاً قد تعلّم في هذه المدرسة، وتخرّج منها، فإنه تبرّع بإعطاء دروس لصفوفنا الدنيا هواية وبلا مقابل، إنها هواية الإبكاء، هواية لا تشبه أي هواية أخرى.

لا يمكن أبداً أن يحضر شكري بيك الدرس ولا نبكي، فهو يحكي لنا

عن طفولته في هذه المدرسة فيبكينا، يتكلم عن «الوطن» يُبكينا. يتحدث عن «الأمة» يُبكينا. يقول «أحبوا أمهاتكم» يُبكينا.

أما سبب هروبي من تلك المدرسة فكانت الدموع التي ذرفناها في زلزال طوربالي، حيث تهدّمت البيوت، ووقع العديد من الضحايا.

دخل شكري بيك غرفة الصف يومها، وكأنه تمثال متحرك لمأتم حزين. كنا حتى ذلك اليوم نحن فقط الذين نبكي، أما يومها فقد بكى شكري بيك أيضاً. معنا. وحثّنا على ضرورة التبرع بالمال لضحايا مأساة الزلزال. وهل يُحكى بالمال؟ كنّا مستعدين للتبرع بأرواحنا. وراح يسألنا فرداً فرداً بكم سنتبرع ويسجل ذلك على ورقة. نحن سنجلب المال الذي وعدنا بالتبرع به، من بيوتنا عندما نذهب في عطلة نهاية الأسبوع.. نحن.. من نحن؟ أطفال في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من أعمارنا. وكلنا أيتام.. ومن يستطيع منا الحصول من أمه على خمسة وعشرين قرشاً في الأسبوع يعيش مرفهاً.

كان شكري بيك يتحدث عن ضحايا الزلزال، من ماتوا، ومن بقوا تحت الأنقاض، ومن هم الآن في العراء، بصوتٍ حزينٍ مؤلم، والأطفال يصرخون من بين الدموع والشهقات:

- ليرة!

- ليرتان!

أنا رقيق القلب منذ خلقت، ولا يستطيع أحد مجاراتي في التأثر والبكاء.

وحين كان شكري بيك يقول:

- فيما أنتم الآن في هذا العش الدافئ، فإن إخوانكم في طوربالي..

كنت أختنق وأنا أشهق وأجهش بالبكاء بحيث فقدت نفسي فصرخت:

- ليرتان ونصف!..

العمر أحد عشر عاماً. والليرتان ونصف قبل اثنتين وثلاثين سنة تساوي خمسين ليرة الآن. ولكن هل أبالي؟

مازال شكري بيك مستمراً في شرح فاجعة الزلزال، مصوّراً لنا مصير الضحايا والمنكوبين في لوحات حية حزينة مؤلمة، فصرخت من بين سيل الدموع، والشهقات:

- ثلاث ليرات!

بعدها نسيت الحساب والمساب:

- أربع ليرات!..

- أنَّ شكري بيك أنيناً وهو يقول:

- أبناء وطننا..

فولولت:

- خمس ليرات!..

- إخواننا في الدين..

- ست ليرات أستاذ!..

كان يجب أن تروا حالة الصف يومها، بكاء ونحيب وعويل.

- سبع ليرات!..

- أبناء بلدكم.. إخوانكم..

- ثماني ليرات..

- ولما قرع جرس انتهاء الحصة كنت أصرخ:

- عشرة ليرات!..

ولو تأخر الجرس قليلاً ربما كنت رفعت مقدار التبرع إلى مائة ليرة بتأثير كلام شكري بيك.

لما خرجت من الصف، كانت عيناي المحمرتان من شدة البكاء تؤلمانني، وكان جفناي متورمين، وكنت ما أزال أشهق بالبكاء، وأشرق بالدمع.

غادرت المدرسة في إجازة نهاية ذلك الأسبوع، وجئت إلى البيت، ولما حان وقت العودة إلى المدرسة، ووضعت أمي في يدي خمسة وعشرين قرشاً، عدت إلى رشدي، فلو قلت لها:

- أمي، أعطني عشرة ليرات، فإني سأتبرع بها لمكنوبي الزلزال!

فإنها ستجهش بالبكاء وهي تقول لقد جُنَّ ابني.

ومن يومها لم أعد إلى المدرسة ثانية. ولا أحد يعرف حتى الآن سبب هروبي من المدرسة الداخلية المجانية.

لا أعرف، هل ما زال هناك معلمون مثل معلمينا القدامى، كل كلمة من كلماتهم قنبلة مسيلة للدموع؟ وهل ما زال هناك الآن تلاميذ مثلنا أعماقهم خزانات دموع؟.

باقة بقدونس

كان الكتاب الوارد من المحكمة على الشكل التالي:

«الموضوع: تثبيت ما كان عليه سعر البقدونس قبل سنة.

تقدَّم المدعو علي الغيطاي، الذي يعمل بتجارة استيراد لوازم السيارات والقطع التبديلية في المخزن رقم 34 في شارع بربريز في حي تقسيم. والمقيم في الطابق الثاني في بناية الحرية رقم 302 في شارع العدالة في حي عثمان بيك، بشكوى إلى مخفر فري كوي يدَّعي فيها أن بائع الخضار المتجول درمش أوسكون قد باع خادمته فاطمة باقة بقدونس بسبعة قروش ونصف بتاريخ 1955/6/1 في سوق السبت المقام في فري كوي، ويطلب في شكواه معاقبة البائع المتجول المذكور لبيعه بضاعته بسعر فاحش، مخالفاً أحكام قانون الحماية الوطنية. وتبيَّن من محضر ضبط المخفر أن الظنين درمش أوسكون لم يُبرز فاتورة البيع، كما لم يبيِّن المصدر الذي اشترى منه البقدونس. وبسبب تصرفاته المخالفة لقانون الحماية الوطنية، ولإخلاله بالبند (..) من المادة (..) فقد سيق مع الإضبارة المنظمة بحقه إلى مقام الـ (..) وبنتيجة التحقيقات الأولية التي أُجريت معه أحيل إلى (..) حيث طلب مقام الادعاء معاقبة الظنين درمش أوسكون وفقاً للأحكام الخاصة. لكن وكيل الظنين نفى في دفاعه أن يكون موكله قد ارتكب أي مخالفة لقانون الحماية الوطنية. لأن تسعيرة البلدية للبقدونس

لم تكن معروفة في زمن بيع باقة البقدونس، وكان المفروض أولاً إثبات سعر البقدونس في شهر أيار من عام 1955. فالأدلة والوثائق المقدَّمة ضد موكله لا تستند إلى أساسٍ كافٍ، بناء عليه يطلب تثبيت سعر البقدونس بالوثائق الرسمية في زمن وقوع الحادثة، واستجابةً لطلب المحامي وكيل الظنين (..) لأنه (..) لكونه (..) لذلك (..) باعتباره (..) حيث أنه (..) بناء عليه (..) فإن هذه (..) دراستها (..) مع أنها (..) متعلقة (..) يُرجى تثبيت سعر باقة البقدونس من حدود بلدية اسطنبول في التاريخ المذكور، سواء سعر الجملة أو سعر المفرَّق، وإرسال النتيجة إلى طرفنا مشفوعاً بتقرير منكم».

كان هذا الكتاب الوارد من الديوان، على طاولة المدير، كما كانت هناك أوراق كثيرة تسأل مثل هذه الأسئلة، عن أسعار بيع البضائع المختلفة في سنوات سابقة. والمدير يوزِّع الأوراق بحسب اللجان المختصة. مذيّلاً كل ورقة بحاشية «.. لتثبيت السعر الرائج في التاريخ المذكور والإعلام». أرسل الكتاب الأول إلى لجنة الأحذية، والكتاب الثاني إلى لجنة الغزل والنسيج، ولما جاء الدور على البقدونس، أخذ طرف قلمه بين أسنانه، عضَّ القلم، أسند قبضته على فكّه، حكّ رأسه، ولما لم يصل إلى قرار ما سأل أقدم موظفي غرفة التجارة:

- أي لجنة مختصة بقضايا البقدونس يا سالم بيك؟

فتساءل سالم بيك الذي كان منهمكاً بحل الكلمات المتقاطعة في الجريدة:

- ماذا؟ البقدونس؟
- البقدونس؟
- بقدونس أخضر؟
- يا عيني عليك.. البقدونس يا أخي.. وهل هناك بقدونس يابس؟
- يعني بذور البقدونس وما إلى ذلك؟

- لا، البقدونس نفسه.

وبعد أن حكَّ صلعته وهو يردّد البقدونس نفسه، والبقدونس نفسه، قال:

- هذا يُسأل عنه الحدائقيون.

فقالت موظفة تسوِّي أطراف أظافرها:

- لا أظن، ولو سألتم لماذا، لأن إحدى المحاكم تساءلت العام الماضي عن سعر البقلة، فأحال المدير السابق الكتاب إلى اتحاد الحرفيين.

قال موظف آخر:

- لقد أخطأ في ذلك، فالحرفي هو القهواتي والحلاق، وصبي المطعم وما إلى ذلك، وماذا يعرف هؤلاء عن البقدونس؟

- ما سمعت أبداً حتى اليوم بأن غرفة التجارة تُسأل عن سعر البقدونس.

- أنا أرى أن قضايا البقدونس لا تخصّنا، وإنما تخصُّ البلدية.

- نسأل البقالين.

- البقالون غير تابعين لنا، إذ ليست لهم نقابة تجمعهم.

- سيادة المدير، أحذر أن تكون قد أخطأت في القراءة.

- لا يا روحي، لقد كتبوا البقدونس في عدة أماكن.

- البقدونس؟ هذا البقدونس الأخضر الذي نعرفه؟

- نعم البقدونس نفسه الذي تضعه في الكبة النية. وفي السلطة وغيرها.

- فلنخرج من هنا ولنسأل عن سعره في سوق الخضار.

- أوه ما شاء الله.. ما أسهل ذلك.. وهل ينتهي الأمر بسؤالك؟ يجب أن يثبّت سعره من قبل جهة مختصة.

فاحتدَّ المدير وقال:

ولك أنتم عمًّا تتكلمون؟ إنهم لا يسألون عن سعر البقدونس اليوم، هم يسألون عن سعره قبل سنتين..

- ها.. هذا مختلف.. عندها نعمل..

وضع المدير كتاب المحكمة تحت حافظة الطاولة، والتفت إلى بقية الأوراق.

وبعد شهر ورد من المحكمة كتاب تأكيد:

تأكيداً لكتابنا بتاريخ.. وبرقم.. الذي أرسلناه لرئاستكم طالبين فيه تزويدنا بمعلومات عن سعر باقة البقدونس بتاريخ 1955/6/3، وكم قرشاً يبلغ ثمنها بالجملة، وكذلك بالمفرق، ونظراً لعدم ورود إجابتكم حتى الآن..

صاح المدير:

- ولك ماذا سنفعل بهذا البقدونس؟

فأجاب أحد الموظفين:

- أحِل الموضوع إلى بورصة التجارة، وليبحثوا عن أسعار تلك الفترة.

- أما كان بإمكان المحكمة أن ترسل كتابها إلى هناك؟

- عندما تكتبون أسفل الورقة بحسب العائدية تستطيعون إرسالها أينما شئتم.

وضع المدير كتاب التأكيد في درج الطاولة ريثما يفكّر في إيجاد حل للموضوع، والتفت إلى بقية الكتب الواردة.

وبعد مرور فترة أخرى من الزمن ورد من المحكمة كتاب آخر:

.. المتهم بمخالفة قانون الحماية الوطنية الذي باع بتاريخ 1955/6/1 باقة البقدونس..

صاح المدير:

- هذا البقدونس مرة أخرى؟

- أي بقدونس يا سيادة المدير؟

- البقدونس..

رمى المدير هذا الكتاب في درج الطاولة الأيسر.

في الشهر الثاني من عام 1958 نقل المدير إلى مكان آخر. وفي اليوم الذي جلس فيه المدير الجديد وراء الطاولة التي آلت إليه، رفع حافظة الطاولة فظهر من تحتها كتاب المحكمة الذي تسأل فيه عن سعر البقدونس. سحب درج الطاولة فظهر كتابان يستفسران عن سعر البقدونس. في الأدراج اليسرى بقدونس، في اليمنى بقدونس. في الخزانة بقدونس، بين الأضابير بقدونس.

فصاح المدير الجديد:

- ما هذا البقدونس؟

أجاب موظف:

- ها، ماذا؟ البقدونس؟

- أينما أضع يدي يخرج لي بقدونس، هل هذه مديرية قضايا البقدونس؟

تضاحك الموظفون.. بينما طلب المدير من إحدى الموظفات:

- صنّفي كل كتب البقدونس بحسب تواريخها، وضعيها في إضبارة يا إجلال خانم.

بدأت السيدة إجلال بجمع كتب البقدونس، وكانت أصوات الموظفين تسمع من اليمين ومن اليسار.

- أظن أن لدي أيضاً كتاباً أو كتابين عن البقدونس. يا إجلال خانم، سأعطيك إياهما إذا وجدتهما.

- آآآ انظري يا إجلال خانم، ها هو ذا كتاب بقدونس ظهر هنا.

- انتظري، فقد لمحت منذ أيام كتاب بقدونس في مكانٍ ما.

انشغلت السيدة إجلال عدة أيام، فجمعت كل الأوراق المتعلقة بالبقدونس وصنّفتها بحسب تواريخها، كل ستة أشهر على حدة، وعملت للبقدونس ثلاث أضابير.

وبعد ثلاثة أيام كان هناك اجتماع لمجلس الإدارة. وفي هذا الاجتماع سوف يعبّر تجارنا عن عدم ارتياحهم لبعض القرارات والتدابير التجارية التي اتخذتها الحكومة مؤخراً. وسوف يكشفون ويُثبتون بالأدلة والوقائع أن هذه القرارات ستهزُّ أركان البلاد هزّاً.

نزل أعضاء مجلس الإدارة من سياراتهم عند موقف السيارات، وتوافدوا إلى بهو الاجتماع مثنى وفرادى، وكان المدير الذي سيتكلم في الاجتماع يتأبط ثلاث أضابير منتفخة، إنها أضابير البقدونس.. كان سيثبت بالأدلة أن المدير الذي قبله لم يكن يعمل أي عمل.

تحدث تاجر الإطارات وقطع السيارات التبديلية علي الغيطاي مطولاً وبلهجة قاسية عن القرارات الحكومية الأخيرة، وشرح كيف أنها ستساعد على انتشار السوق السوداء في البلاد، وأيّده في ذلك زميله تاجر ألعاب الأطفال النارية، عندما تكلّم المدير مبدياً ضرورة اتخاذ التدابير المشددة لمنع انتشار السوق السوداء، ثم قدّم أضابير البقدونس الثلاثة وهو يقول:

- أيها السادة، لقد اعتقل تاجر من تجار السوق السوداء خالف قانون الحماية الوطنية، وباع البقدونس بسعر فاحش، وطلبت منّا المحكمة أن نبيّن لها سعر مبيع وشراء البقدونس في ذلك الزمن، ولكن ولسبب ما لم تتم الإجابة على طلبات المحكمة على مدى سنة. أرجو أن لا يظن بأني أقصد الإساءة إلى زميلي المدير السابق، فهو معروف لدينا جميعاً بجدِّه وغيرته على العمل. لكن هذه الأوراق.. فقفز علي الغيطاي تاجر القطع التبديلية من مكانه، وراح يصرخ:

- إن مساعدة الحكومة في حربها ضد السوق السوداء واجبنا أيها الرفاق! فكيلو البقدونس بليرتين، وباقة البقدونس لا أعرف بكم قرشاً..

كان أهم قرار اتخذ في ذلك اليوم هو أن يُرسل استفسار عن سعر باقة البقدونس إلى اتحاد الحدائقيين، وجمعية مال القبان، ونقابة البقالين، دفعة واحدة، وبعد معرفة السعر إرسال الإجابة إلى المحكمة بالسرعة القصوى.

لم يتذكّر رئيس اتحاد الحدائقيين وعضوي الاتحاد ما هو سعر باقة البقدونس قبل سنتين.

تساءل أحد العضوين:

- كم سعر باقة البقدونس اليوم؟

أجابه الآخر:

- أربعون قرشاً.

- إذن فليكن.. ليكن ثلاثون قرشاً في العام الماضي، ولا بد أنه كان عشرين قرشاً في العام الذي قبله.

- صحيح إذ لا يمكن أن يكون أقل من هذا..

وردت الإجابات من الجهات الثلاثة، وكان سعر بيع باقة البقدونس بالمفرق منذ سنتين، عشرون قرشاً بالنسبة لإحدى الجهات، وخمسة وعشرون قرشاً بالنسبة للجهة الثانية، وخمسة عشر قرشاً بالنسبة للجهة الثالثة.

وقام الموظف المختص في غرفة التجارة بإيجاد المتوسط الحسابي لهذه الأرقام الثلاثة، فتبين أن سعر باقة البقدونس قبل سنتين كان عشرين قرشاً. وأُرسلت الإجابة إلى المحكمة، وتبيّن بناء على هذه الإجابة أن بائع الخضار المتجول درمش أوسكون، الذي قُدِّم إلى المحكمة بتهمة بيع باقة

البقدونس بسعر فاحش، كان قد باع الباقة بأقل من السعر الرائج باثني عشر قرشاً ونصف. وفي النهاية تمّت تبرئة درمش أوسكون.

وبعد هذه البراءة حدثت ثلاثة أحداث هامة:

- تقاضى محامي المتهم بالسوق السوداء والذي بُرئ من التهمة المنسوبة إليه 500 ليرة أتعاب محاماة.

- قام درمش أوسكون بتعريف أصدقائه الذي لديهم قضايا على محاميه الذي أنقذه.

- أدلى أحد المسؤولين ببيان صحفي أكد فيه أن الأسعار زهيدة ورخيصة في بلادنا.

زي رسمي

لم أستعمل القطار في أسفاري منذ مدة طويلة، لذلك كنت أجهل واقع قطاراتنا، اتصلت بالاستعلامات أستفسر عمّا يهمني معرفته، فأجابني صوت نسائي يذيب الفؤاد بأن هناك ثلاثة قطارات تتجه إلى المكان الذي أقصده. أحدها في الـ 8.30 والآخر في الـ 10.10 والثالث في الـ 12.20 وكان قطار الـ 10.10 مناسباً لي. وككل مرة، وكما في كل أموري، كنت قد اخترت الأسوأ.

تبيّنت ذلك بعد أن تحرك القطار، إذ كان هذا قطار البريد، أي أنه القطار الذي يتأخر عشرين دقيقة على الأقل في كل محطتين. وإضافة إلى أنه لا مطعم فيه، كذلك من الصعب جداً الحصول فيه على مقعد تلمسه ولو لمساً. ليس مقعد الجلوس فقط، بل إنكم لو تضايقتم جداً فإنكم لن تجدوا لكم مكاناً حتى في المرحاض.. فلو دخلتم مقطورة المرحاض في القطار المتحرّك من محطة حيدر باشا يأتي دوركم في أنقرة.

تبيّنت كل هذه الأمور بعد أن تحرك القطار الذي استقليته، ففي الممر الذي انحشرتُ فيه كنت راضياً حتى لو تسنّى لإحدى عيني أن تنظر من النافذة فترى الدنيا وتتعّرف عليها. فبعد الدفش واللز والضغط، انحشرت مستنداً إلى باب المرحاض. وبعد فترة ولأن أنفي فقد حاسة الشم، لم أعد أفرق بين رائحة الأمونياك والكبريت المتفسخ، ورائحة زهر الليمون.

حمَّلوا كتفي خرجاً مليئاً لكن في الحقيقة لا يمكن أن يُقال أني أنا الذي كنت أحمل هذا الخرج، لأني كنت والخرج الذي على كتفي نجلس في حضن عجوز. ممدد على أنابيب المجاري، وفوق الخرج يجلس صبي، وفوق الصبي يتمدد نصف جسم أبيه، لو قدّمنا أنا ورفاق الطريق هذه الفقرة في سيرك ما، لكنا ربحنا أموالاً طائلة، مع فارق أننا هنا أثناء صعودنا فوق بعض فلا خوف من خطر السقوط، لأنه لم يبقَ مكانٌ حتى للسقوط فيه.

حدثت هزة، وكانت هذه الهزة دليلاً على تحرك القطار، وبهذه الهزة تداخلنا ببعض أكثر وتلاصقنا، ولم يعد هناك مجال لدخول الهواء من بين هؤلاء الناس الملتصقين ببعض هم وحاجياتهم. ولو بقينا هكذا على مدى محطتين، فلن يمكن أبداً فصلنا وتفريقنا عن بعض، إذ تلاصقنا ببعض تلاصقاً محكماً بحيث لا يستطيعون حتى اقتلاعنا من القطار.

وكنت أعرف أن أنفي المحشور إلى زاوية حقيبة خشبية، قد اتخذ شكل مثلث مضغوط، وا أسفاه على أنفي الذي تعجب به كثيرٌ من السيدات اللواتي يفهمن في الأنوف.

مع اهتزاز القطار إيذاناً بالمسير، تعالت أصوات المسافرين:

- سفراً ميموناً..

- سفراً موفقاً..

- شكراً يا سيدي. سفراً سعيداً لكم أيضاً..

وبادرت أنا أيضاً وقلت للعجوز الذي تحتي:

- سفراً سعيداً يا والدي..

ولما لم يجبني، ساورني الشك في كونه ما زال حياً، فكررت ثانية:

- سفراً سعيداً يا والدي.

فأجابني من تحتي صوت مخنوق:

- مع السلامة يا ولدي..

وبعد أن قطعنا أربع خمس محطات بهذا الشكل جاءنا صوت من الأعلى:

- تذاكر!

ومع الجميع راح العجوز الذي تحتي يبحث عن تذكرته، فيما كان المفتش يفتش التذاكر، ويصرخ:

- تذكرتك للدرجة الثالثة، بينما هنا ممر الدرجة الأولى، هيا إلى الدرجة الثالثة.

فاعترض عليه مسافر يحمل تذكرة الدرجة الثانية قائلاً:

- يا هذا، نحن هنا بمحاذاة المرحاض.

لكن المفتش، وهو كيف ما كان نصف موظف رسمي، ويلبس بدلة رسمية، رد على اعتراض الرجل قائلاً:

- محاذاة المرحاض، ولكن محاذاة مرحاض الدرجة الأولى، أما أنت فهيا إلى الدرجة الثانية!..

لم يكن غيري يحمل تذكرة الدرجة الأولى، فخلا الممر المحاذي للمرحاض، ولم يعد لدي حسٌ إنساني لمجرد التفكير بامتلاء ممر الدرجة الثالثة وازدحامه وراح مفتش التذاكر يشكو لي:

- شعب شاطر جداً يا سيدي، يقطعون تذاكر درجة ثانية وثالثة، ثم يأتون ويستلقون على ممر الدرجة الأولى.

وأيَّدت كلام المفتش قائلاً:

- صحيح، شعب شاطر جداً.. وتمييز المقطورات لا يكفي، أحسن عمل هو تمييز القطارات، قطار الدرجة الأولى، قطار الدرجة الثانية، قطار الدرجة الثالثة.

ذهب المفتش، سوّيت ملابسي، الممر مازال مزدحماً، ولكن كان بإمكاني المشي فيه على الأقل، وكذلك النظر من النافذة إلى المحيط

الخارجي، وعلى أمل رؤية مكان شاغر رحت أتطلّع من نوافذ المقصورات، كانت المقصورات كلها ملأى، عدا واحدة، كان يجلس فيها شخص بمفرده، لكنه لم يكن من الناس العاديين الذين نعرفهم، كان رجلاً محيراً، يرتدي زياً غريباً الطرف الخارجي لبنطاله مشغول بالمعدن، سترته مطرزة الكتفين، مقصبة القبة، وعليها مستديرات معدنية. لو قلت بأنه باشا، لا هو ليس باشا. لو قلت إنه مرافق، لا هو ليس مرافق. لو قلت إنه ضابط أمن، لا هو ليس كذلك. رجل إطفاء، لا مراقب عمال التنظيفات. لا كبير موظفي البلدية، رئيس الحركة في محطة القطار، آمر الميناء، صدر أعظم، انكشاري، لا، لا. ولكن في زيه شيء من كل واحد من هؤلاء، لم يكن زي الرجل يشبه أياً من الأزياء التي أعرفها. تساءلت في نفسي، أيمكن أن يكون سفيراً لدولة ما؟ فالسفراء يرتدون هذه الأزياء عندما يُقدِّمون أوراق اعتمادهم لرئيس الدولة المعتمدين لديها. لكن هذا الزي لا يلبس في القطار.

أخيراً خطر ببالي أنه ربما كان ملكاً لإحدى الدول الشرقية المجاورة، ولكن ماذا يفعل الملك في قطار البريد؟ ثم إنه لو كان ملكاً، ألا تكون حاشيته حوله؟

سألت مسافراً يتطلع من نافذة الممر إلى الخارج:

– من هذا الرجل الذي يرتدي زياً رسمياً ويجلس بمفرده في هذه المقصورة؟

– لا أعرف، ولكن يبدو أنه ذو رتبة عليا. ربما كان مارشالاً؟ أجابني.. فبالنظر إلى الأوسمة التي تعلو صدره.. قال مسافر آخر يستمع لحديثنا:

– لا بد أنه جنرال أجنبي..

– ولكن ألا يكون للجنرال مرافق؟

- مرافقه في مقصورة أخرى.

الآخرون أيضاً لا يعرفون من هو هذا الرجل ذو الزي الغريب، سألت المفتش المار، وإذ به هو أيضاً لا يعرف.

تملكني فضول شديد، فتساءلت ماذا سيحدث لو أني فتحت الباب وجلست على أحد المقاعد الخالية؟ فالرجل ذو الزي لن يأكلني على أية حال..

قال أحد المسافرين:

- يصير عيباً.

عيب ميب، فتحت باب المقصورة وولجت إلى الداخل.

رفع كتفيه كمن يقول «وما شأني»؟ ربما هو لا يعرف التركية. جلست وبعد أن مرت نصف ساعة هكذا دون أي حديث، سألته بالإنكليزية:

- هل سعادتكم تقومون بسياحة بمفردكم؟

نظر الرجل ذو الزي إليّ وقال:

- إنكليزي لا.. إذن هو لا يعرف الإنكليزية، ثم إنه تركي.. مرت فترة أخرى هكذا. ثم سألني هو هذه المرة بالتركية:

- إلى أين أنتم ذاهبون يا سيدي؟

- إلى أسكي شهير.. وإلى أن يشرِّف صاحب الدولة؟

- أستغفر الله.. إني ذاهب إلى قونية.

- عفواً، يبدو من زيكم أن لكم صفة رسمية، لكني لم أفهمها.

- ليس لي أي صفة رسمية.

- حسناً، وما هذا الزي؟

ضحك الرجل وقال:

- هذا لباس سفري، أرتديه كلما أردت السفر بالقطار، ألم تروا حالة القطار؟ يستحيل الحصول على مقعد. قديماً كانت روحي تطلع في هذه

القطـارات، أمـا الآن فقـد اهتـديت إلى الطريقـة الأسـهل. كنـت قبـل بـضع سـنوات بـواب فنـدق.. وهـذا الـزي الـذي ترونـه علـي، هـو زيّ بـواب ذلـك الفندق. حصلت مرة على إجازة من الفندق لمدة شهر، وكنت أود السفر إلى صيلا، وكي لا أتأخر على موعد تحرك القطار، ولضيق الوقت لم أغيّـر زيّ البـواب، وأسـرعت بـه إلى المحطـة علـى أن أغيّـره في القطـار، وفيمـا كنـت أصـعد سـلالم محطـة حيـدر باشـا كـان الجميـع يتراجعـون إلى الجـانبين مُفسحين لي الطريق. ووقف موظفو القطارات باستعداد يؤدون لي التحيـة. ثم أخذوا مني حقيبتي وحملوهـا عني. وأمّنـوا لي مكانـاً في مقطـورة الدرجة الأولى الله.. الله.. هل شبّهوني بأحد مـا؟ إذ كلمـا كنـت أقـول لهـم لا تتعبـوا أنفسكم مـن أجلـي، كـانوا يجيبـونني: «رجـاءً يـا سـيدي أسـتغفر الله.. هـذا واجبنـا». نظـرت مـن نافـذة المقـصورة وإذ بالأهـالي قـد تجمهـروا.. ومـا إن تحرك القطار حتى تعالت أصوات تـصفيق حـاد وبـدوري لوّحـت لهـم بيـدي مبتسماً. سار القطار وازدحمت ممراته بالركاب يتكدّسـون فـوق بعـض، وأنـا بمفـردي في المقـصورة، فعدلت حينـها عـن تغيير ملابـسي. وكـان بعـض مـن يفـتح بـاب المقـصورة خطـأ مـن الركـاب ويرانـي في زي البـواب يعتـذر مـني، ويتراجـع، وهكـذا وصـلت مرتاحـاً إلى قونيـه، ثـم بعـد مـدة تركـت عملـي في الفندق، وأقمـت في قونيـه. لكني بقيـت محتفظـاً بـزي البـواب، وكلمـا رغبـت السفر بالقطار فإني أُخـرج هـذا الـزيّ مـن الـصندوق وأرتديـه، لكنـي سمنـت وصار خصر البنطال يضايقني، فلو سمحت لي، سأحل زرين.

قلت للرجل الذي استمعت إليه مدهوشاً:

- أستغفر الله..

حلَّ الرجل أزرار بنطاله، فسألته:

- وهذه الأوسمة؟

فأجابني الرجل ضاحكاً:

- هذه ليست أوسمة، إنها لوحات معدنية بأسماء الفنادق التي عملت بها .

- إذن هكذا . بكل ارتياح..

- سافرت كثيراً جداً بالقطارات، ولم يتجرأ أحد غيرك حتى اليوم على الاقتراب مني وأنا في هذا الزيّ.

فُتح الباب ودخل مراقب التذاكر، وما إن رأى الرجل بزيه أمامه حتى ضرب كعبي حذائه ببعضهما، ورفع يده إلى قبعته بالتحية، وقال:

- أهناك أية أوامر يا سيدي؟

فأجابه الرجل ذو الزي:

- لا يا ولدي، أشكرك.

وحين غادر مراقب التذاكر، قال لي:

- إذا أردت أن تسافر بالقطارات مرتاحاً، فصِّل لنفسك بدلة بوابٍ أنت أيضاً .

ساعات الساحات العامة

صحيح أن المصائب تتوالى على الإنسان متتابعة، فقد كنت بلا عمل، بلا مال، وكنت عاشقاً، ومريضاً، وهناك دعوتان مقامتان ضدي. ولو أُجري سحب ليانصيب المصائب، فلا أظن أن جوائز ترضية الجوائز الكبرى ستكون أكبر مما حلَّ بي.

فأصعب أمراض الدنيا وأثقلها، هو المرض الذي يُصاب به الإنسان، وأنا كنت مصاباً بداء المفاصل، وكنت أظنه مرضاً أخطر من مرض السرطان أو مرض السل..

أما بالنسبة للدعوتان المقامتان ضدي، فإن موضوعهما لا يهمكم، لكني إذا أخبرتكم أن المدعي العام يطالب بسجني مدة اثني وعشرين عاماً، فستفهمون حجم المصيبة القضائية التي أوقعت فيها.

فإذا جئنا إلى مصيبة التعطيل عن العمل، فلأفهمكم إياها أيضاً. كنت أعمل في مكان ما بمئة ليرة أسبوعياً. وفي أحد الأيام قال لي صاحب العمل:

- الأحوال سيئة. لذلك فإني أخفض أجرك إلى خمسين ليرة.

وفي الأسبوع الثاني قال:

- الأحوال تزداد سوءاً، لذلك فإني أخفض أجرك إلى خمس وعشرين ليرة.

وبعد مرور شهر قال:

- إني مضطر لتخفيض أجرك الأسبوعي إلى عشر ليرات.

- استمررتُ في العمل، منتظراً معرفة إلى أيٍّ حدٍّ يستطيع تخفيض أجري، إلى أن قال لي أخيراً:

- لن أعطيك أجراً أبداً.

ولما أجبته:

- لا عليك يا معلمي أنا أعمل مجاناً.

صرخ في وجهي:

- لا خير لي في رجلٍ مغفلٍ إلى حدٍّ العمل بالمجان.

طردني، وأحلَّ محليّ عاملاً آخر بأجر مئة وخمسين ليرة أسبوعياً، وبسبب ملاحظته التي سجلها في شهادة الخدمة وحسن السلوك التي زودني بها، والتي يقول فيها «إنه يرضى بالعمل مجاناً» لم أستطع تأمين عمل لي في أي مكان.

أما مصيبتي المادية، فيكفي أن أفهمكم أني لم أضع لقمة في فمي منذ يومين. أما مصيبتي في العشق فكانت هي الأطغى والأقسى. فمحبوبتي فتاة في الثامنة عشرة من عمرها. وأستطيع القول إنها كانت تلاطف كل شبان اسطنبول عداي أنا، حيث لم تعرني أي اهتمام، ولم تجب على رسالة واحدة من رسائلي إليها.

لم أكن أفكّر بمرضي، ولا بمطالبة المدعي العام بسجني اثني وعشرين عاماً، ولا بتعطيلي عن العمل، ولا بقرقرة بطني من شدة الجوع، فمشكلتي العاطفية كانت هي السائدة.

قررت الانتحار بسبب هذه الفتاة. سوف أقطع طريقها، وسوف أُعلن لها عن حبي للمرة الأخيرة، فإذا ما أجابتني مثل كل مرة:

- أنا لست من الفتيات اللواتي تعرفهن.

عندها سوف أفهمها أنا أيضاً لست من الشبان الذين تعرفهم. هذا لا يعني أنني سأطعنها بالسكين أربعين طعنة. لكني في النهاية كنت سأضحّي بنفسي.

انتظرت الفتاة، ولما لمحتها من بعيد. اقتربت منها وبادرتها:

- ملاكي..

لم تدعني أسترسل، إذ قالت:

- لنلتقِ غداً عند موقف حافلة بيازيد.

كاد قلبي يتوقف لشدة تأثره واهتياجه، فرحت أئن: آه.. آه.. آه.. ثم ضغطت بكلتا يدي على قلبي وتأوهت:

- أوه، أوه.. أوه.. قلبي لا يحتمل كل هذه السعادة، متى نلتقي غداً؟ سألتها.

أجابت حبيبتي:

- في العاشرة تماماً، عند موقف حافلة بيازيد..

وتابعت سيرها. فتمتمت من ورائها:

- في الساعة العاشرة، في الساعة العاشرة..

في تلك اللحظة بالذات سألني أحدهم:

- ما بك واقفاً تئن؟

كان السائل صديقاً قديماً، فأجبته:

- آه يا صديقي، إن مفاصلي تؤلمني جداً.

مدَّ لي بطاقته، وقال:

- تعال إلي غداً، فأعطيك علاجاً، ولا يبقى فيك شيء.

- متى غداً؟ سألته، وأردفت لا أستطيع المجيء في العاشرة فلدي عمل هام جداً.

- تعالَ في الحادية عشرة..

كانت الفتاة فألاً حسناً لي، فما إن تجاوبت مع حبي لها، حتى حصلت على علاجٍ لمرضي، هذا كله انتصار الحب.

وفيما كنت ماشياً أردد:

- إيه يا حب إيه، يا حب!..

التقيت بزميل لي كنا قد عملنا معاً في زمنٍ ما، فسألني:

- هل وجدت عملاً؟

- لا.

- تعال إليَّ غداً، فأعطيك عملاً بمئتي ليرة أسبوعياً.

كدت أجن من فرحي، فقلت:

- لا أستطيع المجيء في العاشرة، كما لا أستطيع المجيء في الحادية عشرة.

- تعال في الثانية عشرة، ونتناول طعام الغداء سوية.

ليست المصائب فقط هي التي تتوالى متتابعة، بل ها هي ذي الخيرات تتوالى متتابعة أيضاً. فقد جلبت لي الفتاة الحظ، وكنت أحدث نفسي بأن أقف وسط هذه الساحة وأصرخ:

- إيه يا حب، لكم أنت قوي!

وإذ بأحد المعارف يقول:

- مرحباً.

- مرحباً..

- أغلب الظن أنك لا تملك مالاً..

- ومن أين عرفت؟

- واضحٌ من كلامك مع نفسك.

- لا أملك.

- تعال إليَّ غداً، فأقرضك خمسمئة ليرة تسددها لي عندما يتوفر لديك المال.

- لا أستطيع المجيء في العاشرة، ولا أستطيع المجيء في الحادية عشرة كما لا أستطيع المجيء في الثانية عشرة.

- تعال في الثانية..

حدثت هذه الأمور كلها خلال نصف ساعة، وكدت أرقص بهجة وسروراً، التفَّ أحدهم برقبتي معانقاً وهو يردد:

- أو، أو، أو..

كان أحد أصدقاء الطفولة، لم ألتقِ به منذ سنوات، وقبل أن يقول شيئاً، قلت له:

- إنك محامٍ بالتأكيد.

- ومن أين عرفت؟

- أموري كلها تسير اليوم سيراً حسناً، لقد تمَّ كل شيء، وبقيت بحاجة إلى محامٍ فقط، وهو أنت حتماً.

- نعم إني محامٍ، فهل لديك دعوى؟

- نعم.

- أنت لم تذكرني، أما أنا فلم أنسك. فقد أسديت لي يوماً معروفاً كبيراً. تعال غداً إلى مكتبي، فأمسك دعواك. ولا أريد منك مالاً.

- في العاشرة لدي عمل، وفي الحادية عشرة عندي موعد، وفي الثانية عشرة سأقابل أحدهم وفي الثانية سأذهب لمكانٍ ما.

- تعال في الثالثة..

نسيت كل المصائب والبلايا التي كانت تحطُّ على رأسي، وبالفرح الذي كان يغمرني، لا أعرف كيف أصبحت تلك الليلة. نهضت من فراشي مع بزوغ أشعة الشمس. إذ كنت سأمشي مشياً حتى موقف حافة بيازيد،

لأنـي لا أملـك أجـرة ركـوب البـاص أو الحافلـة إلى هنـاك. كـان بـيتي، أو بالأحرى البيت الذي أقيم فيه، يقع في لاوند، وبحسب تقديري فما زالت هناك ساعتان أو ثلاث ساعات على موعد لقائي مع حبيبتي. ولكي أتأكد من الوقت تماماً نظرت إلى الساعة التي تعلو موقف باص لاوند. ولكي أتأكد من أنني لست مخطئاً نظرت ثانية، فركت عيني ونظرت مرة ومرة أخرى، أمان يا إلهي.. الساعة العاشرة إلا ربعاً، لن أستطيع الوصول في خمس عشرة دقيقة ولو ركبت الباص أو الحافلة، بل ولو صرت طيراً وطرت. رحت أجري، كنت أجري وأنا أحدِّث نفسي.. تلاحق الفتاة سنتين، وعندما تستجيب لك، تتأخر عن الموعد.. كنت أجري بحيث لو أطلقوا من ورائي رصاصاً لما لحق بي.. إذن فأنا غفوت عند الصباح، يا جماعة مع أنني خرجت مبكراً من البيت. السيارات التي كانت أمامي خلفتها خلفي واحدة إثر الأخرى. لو ضبطوا الساعة لعرفوا أني حطمت الرقم القياسي في سباق الجري. كانت رجلاي تجريان بي بحيث لا يستطيع عزرائيل اللحاق بي من خلفي. بهذه الحالة وصلت إلى مجيدية كوي، نظرت إلى الساحة.. آآآآ.. إنها الثانية عشرة.. ما هذا؟ عقلي يكاد يطير من رأسي، يا جماعة، لو كانت سلحفاة لوصلت من لاوند إلى هناك خلال ساعة، فهل وصلت وأنا أجري، وأجري في ساعتين وربع؟ تهالكت على الأرض، ورحت أضرب رأسي بحجارة الرصيف، وأعض على الإسفلت بأسناني من شدة غيظي. فتجمهر المواطنون أصحاب المشاعر الإنسانية ذوو الرأفة، حولي، وسألوني:

- ما بك، ماذا حدث؟

قلت والدموع تسيل من عيني سيلاً:

- ماذا سيحدث أكثر مما حدث، انظروا لقد صارت الساعة الثانية عشرة، وأنا كان لدي عمل في الساعة العاشرة.

قال رجل:

- أي ثانية عشرة؟ ساعة الساحة واقفة، إنها تشير إلى الثانية عشرة من مساء أمس.

- أمان، كم الساعة؟

- لتكن الثامنة، ليس أكثر..

قال واحد نظر إلى ساعته:

- نعم إنها الثامنة وخمس دقائق.

جلست هناك، لشدة فرحي وتعبي. فأنا أستطيع الوصول إلى حبيبتي بأي شكل حتى العاشرة، كنت أتصبب عرقاً من شدة الجري، واشتدت آلام مفاصلي عافاكم الله، وهلكت من الجوع، فغفوت برهة من الزمن نصف مغمى عليّ.

وبعد قليل وبدفع قوة الحب كنت على الطريق، لكن لم تكن لي القدرة على السير خطوة واحدة، وصلت إلى شيشلي شبه زاحف، وبنظرة واحدة إلى ساحة شيشلي صرت سهماً منطلقاً، إذ كانت ساعة شيشلي تشير إلى العاشرة إلا ثلثاً. صرت ريحاً.. نسيت مفاصلي، وجوعي، وتعبي، كنت أجري جرياً بحيث كنت أرمي كل من أرتطم به فألقيه أرضاً. فإذا ما اعترضتني مجموعة من الناس كنت أدوس فوقهم وأقفز إلى الطرف الآخر. وقد قفزت من فوق سائق دراجة نارية وتخطيته كمن يلعب لعبة القفز. كان هذا سباق قفز حواجز. ولا شك أني كنت لحظتها أحطم رقماً قياسياً، ولكن لم يكن أحد يعلم بذلك.

وصلت ساحة الحربية بهذا الاندفاع، وكنت أقدّر أني قطعت المسافة بثلاثة إلى أربع دقائق. نظرت إلى ساعة ساحة الحربية، السابعة والنصف.. أيعقل أني كنت أتراجع إلى الوراء لأني كنت أجري بارتباك؟ هل الدنيا تمشي بالمقلوب؟

نظرت لأتأكد ما إذا كانت الساعة واقفة. لا. إنها شغّالة. ودقات عقاربها تتك تكاً التفقت بعمود الساعة كالسكران. ثم تهاويت هناك. كنت قد انتهيت، واسودّت الدنيا في عيني، وبدأت معدتي تقلب.

غبت عن الوعي، ولما أفقت من غيبوبتي، كان أول ما فعلته أني نظرت إلى الساعة، إنها الثامنة وثلاثة دقائق. إذن فقد أمضيت نصف ساعة مغمياً علي، ومثل كيس من العظام أجبرت نفسي على الوقوف. مازالت أمامي ساعتان للقاء محبوبتي. وبدأت السير بتمهل، إذ كان رأسي يدور، ومفاصلي تؤلمني، وبطني تقرقر. لكن لا بأس، فبعد قليل لن يبقى شيء من هذا. ففي الساعة العاشرة سألتقي محبوبتي. وفي الحادية عشرة سأحصل على علاجٍ لآلام مفاصلي، وفي الثانية عشرة سيطلب لي صديقي طعاماً، كما سيؤمن لي عملاً، وفي الثانية سيقرضني أحدهم مالاً، وفي الثالثة سأوكل محامياً بالمجان، سأتخلص من كل المصائب.

وصلت إلى تقسيم، وبنظرة إلى ساعة الساحة، أليست العاشرة؟ إنها العاشرة بالضبط أغمضت عيني وطرت طيراناً، كنت أطير وأنا أحدث نفسي آه لو أن محبوبتي جاءت متأخرة بضع دقائق.. النساء جميعاً يأتين إلى المواعيد متأخرات، لو تأخرت عشر دقائق يكفي. النساء ينتشين من انتظار الرجال لهن. آه.. لو تأخرت..

قدماي ليستا على الأرض، إنهما على أكتاف الناس، على رؤوسهم وعندما وقفت سيارة أمامي معترضة طريقي، دخلت من باب السيارة وخرجت من بابها الآخر، حار الجميع في أمري، ولكن أين من يسمع.. سمعتهم يقولون من خلفي:

- لا بد أنه عدّاء.. عدّاء شوارع.
- لو كان عدّاءً للبس قميصاً وسروالاً.
- إذن فهو بائع متجول، يهرب من موظف البلدية.

كانت الأشكال والألوان تظهر لعيني ثم تختفي. وقعت مرتين، ولكي لا أضيع الوقت، قلبت في الهواء ودفعت نفسي مسافة مترين إلى الأمام، في النهاية رميت نفسي إلى ساحة قره كوي، ونظرت إلى الساعة فوراً، الساعة السادسة والنصف.. يا سلام.. هذه هي الساعة الصحيحة.. فأنا أعرف أنني خرجت إلى الشارع مع أول شعاع من أشعة الشمس، فرحت كثيراً لأنه مازالت لدي ثلاث ساعات ونصف أعيد فيها ترتيب نفسي. فلو قابلت الفتاة بهذا المنظر لفزعت مني.

مشيت إلى ميناء جسر قاضي كوي لأستنشق هواء البحر، وأجمع شتات نفسي، وتمددت على إحدى العوامات، لو ركضت أكثر قليلاً لربما انقلب جسمي كله إلى ماء من شدة التعرق، أي كنت سأذوب وأصبح هباء، هكذا كان العرق يتصبب مني، وربما كنت قد فقدت ثلاثة أو خمسة كيلو غرامات من وزني.

وفيما كنت أفكر في حظي في ذلك اليوم، رفعت رأسي، وإذ بي أرى ساعة الميناء، إنها العاشرة إلا عشر دقائق.

لا تمسكوا بي! الذي يحب الله لا يمسك بي! ماذا تساوي الطائرة النفاثة بالنسبة لسرعتي؟ توقفت حركة الذهاب والإياب فوق الجسر، والصفارات تصفر من ورائي، ولكن أين من يسمع يا أخي؟ رجال الشرطة يصفرون بصافراتهم وهم يجرون خلفي. ولكن حتى رصاص مسدساتهم لا يمكنه اللحاق بي، وصلت ساحة أمينونو بنفسٍ واحدٍ لأجد ساعتها تشير إلى الثانية والنصف. وقعت هناك على الأرض من غيظي، ورحت أرتجف كمن انتابه نوبة صرع. أضعت الفتاة، لا بأس.. وأضعت علاج داء المفاصل هيا وهذا لا بأس.. وأضعت صديقي الذي سيقرضني مالاً. أملي الوحيد الباقي الآن هو المحامي. ولكي لا أضيع هذا على الأقل، تحاملت على نفسي ورحت أمشي خائر القوى، ولا أعرف كيف

وصلت إلى سيركجي، نظرت إلى ساعة المحطة، إنها تشير إلى التاسعة، هدأت نفسي كأن مياهاً باردة سُكبت في جوفي، نسيت تعبي كله. انظر ماذا يفعل الحب..

مشيت صاعداً المرتفع، وأنا ألهث، وإذ بأحد المعارف يسألني..

- ما هذه الحالة؟

وبصوت تخنقه العبرات أجبته:

- لا تسلني عما حلَّ بي.. لكني حدثته بكل ما جرى وكأنه سألني.

وبعد أن أصغى إلي قال:

- لابأس يا أخي، لكنك متضايق بلا سبب..

- كيف؟

نظر إلى ساعته وأردف:

- لأنه مازالت أمامك نصف ساعة للقاء فتاتك.. فالساعة الآن التاسعة والنصف، ومازالت أمامك نصف ساعة.

تنفست الصعداء. ورحت أمشي الهوينا متبختراً، إذ كان علي أن أُلملم شتات نفسي على الأقل، إلى أن أصل إلى مكان اللقاء. كان جوعي وتعبي وألمي كله يتلاشى ويزول كلما اقتربت من بيازيد .. لكن ضربات قلبي كانت تزداد شدة.

وصلت إلى موقف حافلة بيازيد، ساعة الموقف مازالت الثامنة وعشرون دقيقة. الساعة التي على الطرف الأيمن لباب الجامعة تشير إلى العاشرة إلا ثماني عشرة دقيقة، والتي على الطرف الأيسر تشير إلى التاسعة والنصف.

توجهت إلى الموقف، وبدأت الانتظار، سأحدث حبيبتي عن الحظ الحسن الذي جلبته لي، وكيف أني أمّنت عملاً، ومالاً، وعلاجاً لمفاصلي، وسأخبرها أنه صار بإمكاننا الزواج الآن، وككل شاب ينتظر حبيبته على

موعد، صفّرت لمدة ساعة، ثم هززت سلسالاً في يدي لمدة ساعة أخرى، وسرحت في الخيال لمدة ساعتين وأنا أصفّر وأهزُّ السلسال. وبعد لأيٍ ثبت إلى رشدي، نظرت إلى ساعة الساحة، إنها الساعة التاسعة إلا عشرين دقيقة، إذن فالإنسان عندما يسرح في الخيال. يظن أنه أمضى وقتاً طويلاً، عاودت من جديد الصفير، وهزّ السلسال، والسرحان، نظرت إلى الساعة، إنها السابعة.. هل هذه الساعة ترجع إلى الوراء؟ أم أنها صارت الساعة السابعة مساء؟ نظرت إلى ساعتي باب الجامعة، إحداهما الثالثة والنصف، والأخرى التاسعة.. اخرج من هذه المشكلة إن استطعت..

اقتربت من أحدهم وسألته:

- عفواً، كم الساعة؟

وإذ بي أمام رجل موتور يصرخ:

- هل أنت أعمى؟ هذه ساعة المصرف. وهنا ساعة كبيرة عند الموقف، وهناك ساعتا باب كبيرتان..

عدت للصفير وهز السلسال، والتكلم مع نفسي، أظلمت الدنيا، والساعة مازالت العاشرة إلا ربعاً، لا بد أن غيوماً تحجب الشمس، جلست على سور الحديقة التي خلف الموقف. لا أعرف جيداً ماذا جرى بعد ذلك. أفقت وأنا أتمطى، ثم كاد نهوضي ونظري إلى الساعة دفعة واحدة، وإذ بالساعة قد بلغت الثانية عشرة.

أضعت حبيبتي، فلأحافظ على الطعام على الأقل، ذهبت إلى صديقي الذي دعاني في الثانية عشرة، وإذ بباب الخان الذي فيه مكتبه، جدار أصم، سألت:

- لماذا الخان مغلق؟

- الخان يغلق أيام الآحاد.

وبما أن موعدي مع حبيبتي كان يوم السبت، إذن أنا قد غفوت طوال الليل في الحديقة، جئت إلى أمينونو. نظرت ساعة الساحة هناك، إنها الثامنة إلا ربعاً.. أي ثامنة إلا ربعاً هذه؟ إنها ليست صباحية، وهي ليست مسائية.

نارنجة ناحلة

وجدت في البيت تحت طاولتي، دفتر جيب، سألت من في البيت، الدفتر ليس لأحدٍ منهم. دفتر أنيق جميل ومزخرف، ذو غلاف كحلي. فتحت الدفتر لأعرف من هو صاحبه. وتملكتني الحيرة والدهشة منذ صفحته الأولى. إذ طالعني اسم شخص كبير، بل كبير جداً، وعنوان منزله، ورقم هاتفه في الصفحة الأولى. قلبت إلى الصفحة الثانية، وفيها أيضاً كانت أسماء شخصيات كبيرة وعناوينهم وأرقام هواتفهم. مسجلة بعضها تحت بعض بالتتالي. حيرتي ودهشتي كانتا تشتدان كلما قلّبت الصفحات، إذ كان الدفتر مليئاً بعناوين السياسيين، والإداريين، والبارزين، كان أصغر من فيهم مديراً عاماً.. كما لفت انتباهي شيء آخر، وهو أن السياسيين الذين كُتبت أسماؤهم وعناوينهم في الدفتر، كلهم ممن في السلطة.

لو كان أي واحد مكاني لحار كما حرت. فهذا الدفتر المليء بعناوين المسؤولين، والبارزين في السلطة، كان بالنسبة لي كقنبلة على وشك الانفجار. لا بد أن أحد خصومي قد وضع هذا الدفتر سراً في بيتي. لم أكن متأكداً من الضرر الذي لا يمكن أن يلحقوه بي بهذا الدفتر المليء بعناوين كبار المسؤولين، لكني لا أعتقد أبداً أن هذا الدفتر وُضع تحت طاولتي بنيّة حسنةٍ. انتابني خوف لا يوصف. فقد يُقرع الباب الآن، ويدخل رجال الشرطة السرية ويقولون لي:

- هيا أخرج الدفتر!

فأسألهم بارتعاش:

- أي دفتر؟

سيفتشون غرفتي، ثم سيجدون الدفتر تحت طاولتي، وكأنهم وضعوه هناك بأيديهم.

كنت موقناً أن هذا هو ما سيحدث.. فالسافل الذي وضع هذا الدفتر في بيتي كائناً من كان، قد ذهب حتماً وأبلغ الشرطة، مؤكداً لهم أني ضالع في عملية كبيرة..

وعندما يجد رجال الشرطة السرية الدفتر، سيقولون لي:

- تكلم!.. لماذا كتبت عناوين مسؤولينا كلهم في هذا الدفتر؟ هل تفتح لهم سجلاً عندك؟ هل سترسل لهم تهديدات؟ أم أنك ستغتالهم؟

يا رب! بم سأجيبهم عندها؟ ماذا يمكن أن أقول ليصدقوني؟

لا بد من إحراق هذا الدفتر فوراً، وذرٍّ رماده في الهواء.

من هو السافل الذي دسَّ لي هذه الدسيسة يا ترى؟ لقد زارني في بيتي مساء أمس ثلاثة أصدقاء، لكن أولئك لا يمكن أن يفعلوا شيئاً من هذا.. أحدهم طبيب، والثاني موظّف في إحدى مطابع الجامعة، والثالث مدرّس آداب..

فيما كنت أضع الدفتر في مدفأة الحمام لإحراقه، قُرع الباب، إنه خالد صديقي منذ عشرين سنة، أحد زوار مساء الأمس، الموظف في إحدى مطابع الجامعة، هو أيضاً كان مثلي متوتراً ومرتبكاً، وهو الذي بدأني بالسؤال:

- ماذا بك ممتقع اللون؟

فسألته أنا أيضاً:

- ما هذه الحالة التي أنت فيها؟

- أرجوك، هل سقط مني دفتر هنا ليلة البارحة؟
مددت يدي إليه بالدفتر:
- أهذا هو؟
انقض على يدي:
- نعم هذا هو.. هذا الدفتر. لا يمكنني أن أصف لك مبلغ ضيقي وانزعاجي لفقدانه.
أمسكت بيده، وسحبته إلى غرفتي، وقلت له:
- كدت أموت من الخوف. والآن قل لي بصراحة. ماذا تفعل عناوين كبار المسؤولين كلهم عندك؟
هو الذي دهش وحار هذه المرة، وسألني:
- وأنت، أليس لديك دفتر لعناوين كبار المسؤولين؟
- لا.
- اعمل واحداً فوراً أرجوك، وليبقَ في جيبك. اسمع لأفهمك لماذا كتبت هذه العناوين في دفتري. لقد تولدت لدي في الآونة الأخيرة هواية جمع أقلام الحبر، كنت أشتري بعضها، وكان بعضها الآخر يُهدى لي، صار لدي في جيبي حوالي خمسة عشر قلم حبر. ذهبت مرة لزيارة صديقي الشاعر الألماني القادم من ألمانيا، في الفندق الذي ينزل فيه وعندما علم بجمعي لأقلام الحبر، أهداني هو أيضاً قلماً. ولما خرجت من الفندق، وانعطفت في المنعطف، لم أعد أحتمل، إذ حدثتني نفسي بفحص القلم.
وكما تعلم فإني أحمل في جيبي دوماً مصباحاً، فحصت ريشة القلم على ضوء المصباح، فتراءت لي عريضة. وعلى سبيل التجربة كتبت على دفتر جيبي كلمتين لا على التعيين. خطرت لحظتها ببالي كلمتا.. نارنجة ناحلة فكتبتهما على دفتري. ولترفيع ريش أقلام الحبر كنت أحمل في جيبي ورقة بَرْد ناعمة جداً من التي يستعملها الصاغة. ففكرت أني إذا بردت

الريشة قليلاً فقد تصبح أرفع، أمسكت المصباح بيدي، وفيما كنت أفحص ريشة القلم ثانيةً حطّت يدان على كتفي الاثنتين:

- ماذا تفعل؟

- من؟ أنا؟ لا شيء.. إني أفحص قلماً.

- هيه.. قلم ها؟ أنت ماذا تعمل؟

- أنا في الجامعة؟

لم يدعاني أكمل:

- هـا آ آ آ.. بروفسور.. أي أهـلاً بروفسور أهـلاً.. لكزني أحدهما بمرفقه على جنبي الأيسر:

- امش حتى نشوف!

- أرجوكم يا سادة.. هذا غلط..

- امش ي ي ي..

وعندما جاءتني لكزة مرفق على جنبي الأيمن، مشيت، وإن شئت لا تمش..

ذهبنا إلى أحد المخافر، رموني في إحدى الغرف، انتظرت، لا من قادم ولا من سائل.. وبعد كمٍّ من الزمن جاء أحدهم، وقال:

- اركع!

- لا أستطيع الركوع..

- لا يستطيع الركوع، أهلاً بروفسور أهلاً!.. أخرج ما في جيوبك..

أخرجت كل ما لدي ووضعته على الطاولة، وكان عبارة عن أربعة عشر قلم حبر، وكتابين، ودفتر جيب، ومصباح.. وورقتي بَرْد ناعم خاص بالصاغة..

أشار إلى أقلام الحبر وسألني:

- ما هذه؟

- أقلام حبر..

- هي هي ي ي.. أقلام حبر، ها .. اي أهلاً بروفسور أهلاً!..

جاء ثلاثة آخرون، وباشروا بتفتيشي سوية، تناول أحدهم، ورقة البَرْد وسألني:

- ما هذا؟

- ورقة بَرْد.

- ما نوع ورق البَرْد هذا يا هذا؟ ليست فيه أية خشونة، من ستغش بكلامك هذا؟

- إنه ورق بَرْد ناعم، خاص بالصاغة..

- هي هي ي ي ي.. ورق بَرْد ناعم ها .. أهلاً بروفسور أهلاً!

قال هذا ودفعني بكتفه، ولما رأيت الأمر يسير نحو الأسوأ قلت:

- يا سادة، هذا الذي يحدث غلط كبير.. أنا لا أعرف لماذا أحضرتموني إلى هنا، لكن الجامعة كلها، والصحفيون كلهم يعرفونني، وهذه المعاملة لا تليق بي.

صرخ بي الذي يقلّب دفتري:

- هس ت ت! ثم لمعت عيناه فجأة وهو يسألني:

- ما هذا؟

كان يشير إلى كلمتي نارنجة ناحلة اللتين كتبتهما على دفتري وأنا أجرب ريشة القلم الذي أخذته قبل قليل.

قلت:

- نارنجة ناحلة.

- نارنجة ناحلة ها!؟

- نعم نارنجة ناحلة..

- وما معنى هذا؟

- لا يعني شيئاً.

- لماذا كتبته، إذا كان لا يعني شيئاً؟

- كنت أجرِّب ريشة القلم..

- ها ها آ آ.. طيّب، لماذا لم تكتب شيئاً آخر، وكتبت نارنجة ناحلة؟

في الحقيقة لم أكن قد فكرت بهذا.. فأجبته:

- لا أعرف، هذا ما خطر ببالي، وهذا ما كتبته..

- هـي ي ي ي.. نارنجة ناحلة.. سترى النارنجة الناحلة.. هذا ما خطر بباله.. ولماذا لم يخطر ببالك شيء آخر؟

- جلس أحدهم خلف الآلة الكاتبة. وفتحوا محضر ضبط، انتابني خوف شديد.. أيمكن أن تكون الـ نارنجة ناحلة. التي كتبتها هكذا لا على التعيين هي كلمة السر لإحدى شبكات التجسس؟ أربعة عشر قلم حبر، دفتر جيب، مصباح، كتابان، ورق بَرْد خاص بالصيَّاغ، نارنجة ناحلة.. هذا مثار شبهة فعلاً لأي شخص كائناً من كان، حرت فيما أفعله، وبينما كانت هذه كلّها تسجل في محضر الضبط، كان أحدهم لا يفتأ يقلّب صفحات دفتري.

كنت قادراً على تبرير أي شيء معي لكن بم أبرر «النارنجة الناحلة؟» ومن أين جاءت هذه الجملة المصيبة إلى ريشة قلمي؟ أو لم أكن أستطيع كتابة شيء آخر؟

وقف الشرطي الذي يقلّب صفحات دفتري، فجأة عند إحدى الصفحات، ثم راح يعرض الصفحة على الآخرين، تهامسوا قليلاً، ثم تغيّروا كلياً. التفت إليّ وسألني وهو يُريني أحد العناوين المسجَّلة على الدفتر.

- عفواً يا سيدي، ماذا يكون لكم صاحب هذا الاسم؟

كان صوته وتصرفه قد تغيّرا فجأة وبسرعة:

- كان زميلي في الصف، تقابلنا صدفة ذلك اليوم، فأخذني معه للغداء، وأعطاني عنوانه فسجّلته على دفتري.

كان ما قلته صحيحاً. فقد قابلت منذ أيام صديقاً لي، لم أره منذ سنوات، ولم أكن أعرف حتى أنه مدير عام.

قال الشرطي الذي يمسك الدفتر في يده، مبتسماً ابتسامة خجولة:

- ها ها!!.. إذن فسيادة المدير العام صديقٌ حميم لسيادتكم.

- نعم.. وكنا في المدرسة نلقبه.. رضا طرطق..

- إنـي ممـتن جـداً لهـذا يـا سـيدي.. لماذا لا تجلسون؟.. تفضلوا أرجوكم.

ثم التفت إلى زملائه الآخرين قائلاً:

- لماذا أحضرتم سيادته إلى هنا يا روحي؟ والتفت إلي قائلاً:

- تفضلوا يا سيدي..

أنا في المقدمة، وهم خلفي، هكذا دخلنا غرفة جيدة الأثاث، وأجلسوني على كرسي مريح، ثم بادر أحدهم قائلاً:

- الجو حار اليوم أتأمرون بكازوزة باردة؟

- أستغفر الله..

حضر الكازوز، وبقينا اثنان في الغرفة، فقد خرج الآخرون، وسألني الجالس قبالتي:

- ما سبب زيارتكم يا سيدي؟ هل تأمرون أية أوامر؟

- الله الله.. أية أوامر يا عالم؟ ألم يُمسك هؤلاء بتلابيبي، ويعتقلوني ويُحضروني إلى هنا رغماً عني، دون أن يصغوا إلى ما أقول؟ والآن وبعدما أبدوه لي من لطف وذوق رفيع، سيكون مُعيباً إذا قلت إنهم أحضروني بالكز والنحر والدفع، لذلك قلت:

- سيدي إنها مجرد زيارة للسؤال عن الحال والخاطر.

- أرجوكم يا سيدي. كل الشكر لكم، أدامكم الله.. لقد أحييتمونا بزيارتكم هذه، هذا شرف لنا وأيُّ شرف..

ولكي أهرب من هذا المكان، قلت قبل أن يضطرب الجو الذي هدأ:

- أستأذنكم يا سيدي..

نهض واقفاً، وتراكض الآخرون، وودّعوني جميعاً إلى خارج المبنى، أسرعت الخطى لأنجو من هناك، فلو طلبت أقلامي ودفتري ومصباحي الآن، فسيبدو الأمر وكأني أذكّرهم بغلطهم، وسيكون ذلك معيباً..

أسرع واحد من خلفي:

- سيدي.. سيدي.. سيادة البروفسور، لقد نسيتم حاجياتكم يا سيدي.

كان قد أحضر لي حاجياتي، وسألني:

- أصحيح أنكم صديق سيادة المدير العام؟

- نعم، ولكن لماذا تسأل؟

- لأنه صار سائداً الآن.. أن يسجِّل كل من هبَّ ودب في دفتره أسماء وعناوين مسؤولينا الكبار، هل فهمتهم. وينقذ نفسه بقوله: إنه صديقي. ونحن لا نعرف فيما إذا كان صديقه فعلاً أم لا. إذن فأنتم صديقٌ حقيقيٌ للمدير العام؟

- نعم.

- سيدي لقد كتبت اسمي وكنيتي على هذه الورقة.. لو سمحتم يا سيدي.. عندما ترون سيادة المدير العام مرة ثانية..

قال خالد بعد أن قصَّ عليَّ ما جرى:

- هكذا ومنذ ذلك اليوم، صرت وكلما وجدت عنوان أحد المسؤولين أسجله في دفتري، سواء كنت أعرفه أو لا، كادت مرارتي تنفجر لأنني فقدته يا أخي.

فهذه العناوين شيء مثل التأمين على المال، والتأمين على الحياة.. أرجوك اعمل دفتراً أنت أيضاً. لكن يجب أن تنتبه إلى شيءٍ هامٍ، وهو أن

تمحو من الدفتر اسم أيِّ مسؤول يستقيل. أو يُحال إلى التقاعد، أو يُسرَّح تسريحاً صحيّاً، أو يُسرَّح لضرورة المصلحة العامة.. وإلا فإنك تقع في مشاكل، إذن فأنت لا علم لك بدفتر عناوين المسؤولين..

- لا، لا علم لي به.

- هذا غير مقبول.. فكل فرد يحمل الآن في جيبه مثل هذا الدفتر ضد كل المصائب والبلاوي يا أخي. هل تعلم ما هو مصيرنا بعد أن نخرج من باب البيت؟

اسمع ألم تكن هناك قديماً حجابات وأدعية لوقاية الإنسان من الأمراض، والمصائب، والشرور؟ لقد حلَّت هذه العناوين محلّ تلك الحجابات والأدعية وتأثيرها قاطع مئة بالمئة.

أول حروف الأبجدية

لم أصطحب معي جريدة أو كتاباً، مُؤْثراً أن أُريح دماغي أثناء سفري بالقطار. إذ فكرت بأنني سأصادق الركاب الذين سيكونون معي في مقصورة واحدة. ومن يدري كم من الأشياء الجميلة التي لا أعرفها سأسمعها منهم، وسأتعلم أشياء جديدة، أنا أروي لهم، وهم يروون لي، وهكذا نمضي سفرنا بالقطار لاهين مسرورين.

صحبة الطريق جميلة، إذ تدخلون عوالم أناس غرباء. وهذا يُفرح الإنسان كما لو أنه يكتشف عالماً جديداً غير معروف. تُفضون لبعضكم ما في أنفسكم على مدى خمس ساعات، عشر ساعات، يوم، يومين. وبعدها تفترقون عن بعض في إحدى المحطات، وقد تلتقون ببعض مرة أخرى طوال الحياة، وقد لا تلتقون أبداً، ولو التقيتم بعد سنوات قد لا تعرفون بعضاً. فالوجوه تُنسى نهائياً، أما الوقائع التي تُروى، وأما القصص والحكايات فإنها تبقى حيّة في الذاكرة.

هكذا استقليت القطار بمثل هذا الأمل. كنا اثنين في مقصورة مخصصة لأربعة أشخاص في مقطورة الدرجة الأولى هذا أفضل. فالشخصان سيكونان أكثر حميمية.

كنا نجلس إلى جانب النافذة متقابلين، كان الجالس قبالتي يبدو في الخامسة والخمسين أو في الستين من عمره. بديناً ذا كرش. والبدينون عموماً

أكثر مرحاً من الناحلين، فالضحك مع ارتجاف شحم الرقبة، واهتزاز الكرش يليق بهم.. إذ يجب أن يكون للإنسان كرش يهتز مع ضحكه حين يضحك، فالضحك لا يليق بمن ليس له كرش يهتز وينط نطاً مع قهقهاته.

كنت قد ألقيت السلام على الرجل البدين عندما دخلت المقصورة. فرد علي بغمغمة لم أفهمها. وما إن جلست حتى وضع نظارتيه على عينيه، وراح يقرأ في جريدته، كان قد مال على الجريدة بأنفه الكبير المتطاول مثل عرموطة، بحيث يظن من يراه أنه لا يقرأ الجريدة بعينيه. وإنما يشمّها أنفه شماً، وكان بيده قلم يؤشِّر به على الجريدة كلما قرأها. ربما كان يضع خطوطاً تحت الجمل التي يراها هامة. كانت إلى جانبه كومة من الجرائد. وكان واضحاً أنه قارئ نهم. ربما هو عالم، ربما هو بروفسور، بل ربما هو سياسي دسّ أنفه في الجريدة، يشمُّ منها الوضع السياسي اليومي.

عندما تحرك القطار، قلت لجاري، لتكون فاتحة حديث بيننا:

– سفراً سعيداً يا سيدي.

ودون أن يرفع أنفه عن الجريدة! كذلك غمغم بأشياء لم أفهمها.

توقف القطار في المحطة الأولى، ثم تحرك، اجتزنا المحطة الثانية، والثالثة والرابعة، ونحن لا صوت لنا. سأنفجر. لو خرجت إلى الممر، الممر مزدحم، لا مكان فيه للجلوس، ولا للوقوف، وكذلك المطعم ليس فيه مكانٌ خالٍ.

من ناحية، كنت أرى تصرف الرجل سليماً، فما جدوى الثرثرة؟.. على المرء أن يملأ وقت فراغه بما يفيده. عليه أن يقرأ بلا توقف. صحبة الطريق جيدة، ولكن ماذا عن الثرثارين.. والذين يتكلمون كلاماً غير لائق، والذين يُوجعون الرأس بسخيف الكلام؟.. ومن يدري كم قاسى الرجل البدين من رفاق السفر الثرثارين أولئك.. ولكن لفت انتباهي شيء واحد، وهو أن الرجل البدين لم يكن يقلب الصفحة أبداً، بل كان ينظر إلى مكان

واحد لا يحيد عنه. هذا الرجل الجالس أمامي هكذا، واهتزاز القطار.. غفوت. وأفقت فجأة على لكزة.

- سيدي، سيدي..

كان الرجل البدين يشدُ كمّ سترتي، قفزت من مكاني وقد ظننت في البداية أن حادثاً قد وقع، ثم ظننت أننا اجتزنا المحطة التي سأنزل فيها. لكن البدين قال:

- عفواً، سأسألكم شيئاً.

قلت وقد راودني أمل بأن باب الحديث بدأ يُفتح:

- تفضلوا يا سيدي.

- ما الذي يخيف المرضى؟

نظرت في وجهه لأتبيّن فيما إذا كان يمزح، لم تكن عليه علائم المزاح:

- أتسأل عن الشيء الذي يخيف المرضى؟

- نعم..

- الطبيب.

كتب على الجريدة شيئاً ثم قال:

- ليس هو.

- الشيء الذي يخيف المرضى، مستشفى..

أيضاً كتب على الجريدة أشياء، ثم قال:

- ما صار.

- أجرة المعاينة..

- لا.. مؤلَّف من خمسة أحرف.

- كفن..

- يبدأ بحرف (ع) وثاني حرف من حروفه (م).

- عملية..

- هه، مضبوط.

غرق ثانية في جريدته، ومرت فترة أخرى بلا كلام، ثم قال فجأة:

- عفواً يا سيدي، سأزعجكم.

- تفضلوا.

- ما هو الشيء الذي يزيد بالضرورة مع ازدياد عدد سكان بلدٍ ما؟

- النوّاب.

- لا لا..

- السجون..

كتب بقلمه شيئاً على الجريدة ثم قال:

- ليست هي..

- تُجار السوق السوداء..

- أبداً.. مؤلَّف من سبعة أحرف.. الثاني (س) والأخير (ك).

- استهلاك..

- هه.. مضبوط..

مرَّت فترة أخرى طويلة بلا كلام، وبعد مدة قال الرجل فجأة:

- السلام عليكم.

أجبته:

- وعليم السلا..م.

- نعم، صحيح..

- ما هو الصحيح؟

- جواب السلام عليكم..

أغلب الظن أن هذا الرجل البدين مجنون.. وقد يهجم علي ويخنقني ها هنا.

- سيدي سأسألكم شيئاً.

- تفضلوا.

- هل تذكرون حرفاً من أحرف السلّم الموسيقي؟
- دوو..
- لا، لا، يا سيدي.
- ري ي ي..
- لا يطابق.
- مي ي ي..
- لا، لا..
- فا ا ا..
- ما صار. هو مؤلف من حرفين وأوله (س)..
- سي..
- الله يرضى عليكم.. إني أفكر به منذ ساعتين ولم أهتدِ إليه. ما شاء الله إن معلوماتكم الموسيقية قوية.
- إنها قوية، وأعرف أحرفاً أخرى غيرها. فا، صول، لا..
وأيضاً سكوت طويل، ثم:
- سيدي.
- نعم؟
- على ماذا تقام مباريات المصارعة؟
- البساط.
- الله يرضى عليكم. أنا كتبت الحلبة وكنت مستغرباً لماذا لم تطابق.
رمى الجريدة من يده، وتناول جريدة أخرى، وعاد يسألني:
- ما الذي يهطل من السماء؟ كتبت حجر، ما صار.
- مطر.
- مضبوط.. ما هذا يا عالم؟
مرت فترة أخرى واجتاز القطار محطتين، فسألني البدين:
- سيدي، ما اسم المركوب باللغة التركية؟

- حمار..
- مطابق تماماً.
- يطابق.
- ما معنى طعام باللغة العربية؟
- أي طعام؟
- طعام سادة.
- الطعام إذا كان سادة يختلف عن الطعام ذي المرق.
- مؤلَّف من ثلاثة أحرف.
- أكل..
- تماماً يا ناس..

وصلنا أنقرة. وقد انشغل البدين بحلّ شبكات الكلمات المتقاطعة في الجرائد حتى وصولنا إلى أنقرة، لكنه سألني عن كل الكلمات.. قال يخاطبني:

- أنا أشتري كافة الجرائد كل يوم.
- قراءة الجرائد شيء جيد.
- لا لا.. لا أقرأ سطراً واحداً، أنا أشتري الجرائد لحلّ الكلمات المتقاطعة. ولا أرتاح قبل أن أحلّ كل الكلمات المتقاطعة في كل الجرائد. شيء مسلٍ جداً.. ولم تعصَ علي حتى اليوم ولا شبكة. أجد الكلمة فوراً.

حملت حقيبتي، إذ كنت سأنزل، بينما سيتابع هو سفره، وقلت له:

- أستودعك الله..

رفع رأسه عن الجريدة، وسألني:

- ما هو أول حرف من حروف الأبجدية؟
- آ.

صاح فرحاً:

- تماماً يا عالم..

بيت هادئ

قال:

إنك تكتب بشكلٍ ممتازٍ.

خطر ببالي أن أردَّ عليه الردَّ التقليدي الذي يردّه على الكتاب عندما تُطرى أعمالهم، شكراً لكم لكني عدلت عن ذلك، وقلت:

- بإمكاني أن أكتب ما هو أفضل، لكن البيت غير مناسب.

- كيف؟

- أفي ذلك كيف؟ البيت صغير، والأسرة كبيرة، والضجيج والضوضاء دائمين، وكما تعلمون فالكتابة عمل فكري يتطلَّب هدوءاً.. في اللحظة التي يأتيك فيها الإلهام تماماً، يأتي الصغير شاكياً أخاه الكبير. بابا انظر إلى هذا.. أبعده عني، يصرخ الأصغر منه، أسكنه يبدأ من هو أصغر، أثناءها يدخل الكبار ببعضهم.. ينتفخ رأسي، وطبعاً لا يمكن كتابة شيء مميّز برأس منتفخ كالطنجرة.

سألني:

- كم ولداً لديك؟

- أحد عشر!

كنت أظن أنه سيقول لي «أدامهم الله» عندما ترامت إلى مسامعي كلمة هوووش ش ش!

هل توجّهون هذه الكلمة لي؟

استشطت غيظاً، وإذا كان قد قالها لي فسوف أدوسه بقدمي.

- أنت تأخذ الأمور دوماً على أنها موجهة إليك.

- لا يوجد أحد غيرنا، لذلك ظننت.

- الانفعال طبع سيء في المرء. فلو صدر صوت قبيح من محرّك سيارة مارة في الطريق، يهجم الانفعالي على السيارة وهو يقول: «أتوجّه هذا لي ولك؟» خطر أحدهم ببالي فجأة، فقلت: هوش. والآن لنعد إلى موضوع الأولاد.. إن أحد عشر ولداً كثير على الكاتب. بل إن ولداً واحداً كثير عليه.. على الكاتب أن لا ينجب أولاداً لأنهم يشغلون وقته.

- إنجاب الولد لا يستغرق وقتاً، لكن تربيته صعبة.

- يجب أن لا يكون للكاتب أولاد، لماذا؟ لأن كل إنسان يستطيع أن ينجب أولاداً، لكن لا يستطيع كل إنسان أن يؤلِّف كتاباً.

- ماذا أفعل، لديّ الآن أحد عشر ولداً، بل أحد عشر ولداً ونصف.. فهناك واحد على الطريق..

- كم من الزمن يستغرق إنجاز كتابك المميّز، فيما لو كنت تعيش في بيت لوحدك؟

- في رأسي أفكار كثيرة بحيث أستطيع إنجاز كتاب كل شهرين، لو تسنى لي بيت هادئ كما أريد.

- أعطيت وانتهيت.. إني أُعطيك بيتي لمدة ستة أشهر.

ظننته في البداية يمزح، لكني صدقته عندما اصطحبني بسيارته إلى البيت، لم يكن بيتاً، كان قصراً فخماً، ذبت وتلاشيت عندما رأيته قال:

- نحن نُمضي الشتاء في نيشان طاش، وقد انتقلنا إلى هنا البارحة، وهذا البيت لك لمدة ستة أشهر، حتى شهر أيار القادم، هيا أرني همّتك،

أنجز كتابك القيّم لأراك.. وأكون بذلك قد ساهمت أنا أيضاً ولو قليلاً في الحركة الأدبية العالمية..

كنت مدهوشاً. قال وهو يغادر البيت:

- لي رجاء واحد فقط، إذ يوجد في الحديقة كلب حراسة كبير، وفي البيت جرو صغير، تعتني بهما، وهناك كناري في بهو البيت.

- أنا أحب الحيوانات.

ترك لي الرجل قصره الفخم ومشى. لو رأيت ذلك في الحلم لما صدقت. تجولت في أرجاء الحديقة أولاً، ثم في أنحاء القصر من أوله لآخره، كان يُخيِّم على المكان هدوء لا يوصف، هدوء تسمعه الأذن، وتراه العين.. هدوء يكاد يلمس باليد.

صعدت إلى الطابق العلوي، كان منظر المروج من فوق، جميلاً آسراً لا يمكن وصفه.. بحيث قلت لنفسي عندما جلست إلى الطاولة:

- إيه! ولك هنا حتى الحمار يصبح شاعراً..

بهذه الحماسة تشبثت بقلمي. ولم يكن القلم قد مسَّ الورق بعد، عندما رنّ جرس القصر الكبير. نظرت هنا، ونظرت هناك، لم أعرف مصدر صوت الجرس.

بحثت في غرف الطابق العلوي أولاً، ولم أجد فيها ما يشبه الجرس، لكن الجرس لا يزال يرنّ، واضح أنه جرس الهاتف. بحثت ومشَّطت المكان تمشيطاً.

أخيراً عثرت على الهاتف في الطابق الأوسط التقطت السمّاعة ووضعتها على أذني، لا صوت. والجرس لا يزال يرنّ، إذن فليس الهاتف هو الذي يرنّ.

أيمكن أن يكون في البيت هاتف آخر؟

ركضت في هذا الاتجاه، وركضت في ذاك الاتجاه، واكتشفت أخيراً أن جرس الباب هو الذي يرنّ، كان القادم بائع الصحف.

- لا داعي! من الآن فصاعداً لا داعي للصحف!..

أغلقت الباب، وعدت ثانية لأجلس خلف طاولتي. وفيما كنت أمسك القلم بيدي، رنّ الجرس مرةً أخرى، نزلت سلالم الطابقين، ولكن لا أحد بالباب هذه المرة. أيكون الأولاد هم الذين يقرعون الجرس ويهربون؟ لا أحد بالباب. لكن الجرس لا يزال يرنّ. كان جرس باب الحديقة الخلفي هو الذي يرنّ هذه المرة. إنه بائع الحليب.

- لا داعي! من الآن فصاعداً لا داعي للحليب! لا تُحضر لنا حليباً!

- يوجد حساب أسبوع.

الرجل ترك لي قصره الفخم لمدة ستة أشهر دون أن يأخذ أجرة ولو عشرة ليرات.. دفعت حساب الحليب.

صعدت إلى الطابق العلوي، وقبل أن يمسّ القلم الورقة، رنّ الجرس ثانية، ركضت إلى الباب الأمامي أولاً، ثم إلى الباب الخلفي. لا يوجد أحد.

كم باباً لهذا القصر؟

أدور وأبحث، لا يوجد باب آخر.. الجنون ليس باليد. لا بدّ أنهم أولاد عديمو التهذيب! عندما أركض إلى الباب الأمامي، يقرعون جرس الباب الخلفي، وعندما يرنّ جرس الباب الأمامي، أفتح الباب الخلفي لأفاجئهم، وإذ بعديمي التربية قد هربوا. وفجأة خطر الهاتف ببالي.. أوه.. إنه جرس الهاتف الذي يرنّ.

- ألو، تفضلوا..

- نازان خانم من فضلكم.

- ليسوا هنا يا سيدتي.

لم تمرّ فترة على جلوسي إلى طاولتي. ترنّ ن ن.. الجرس مرة أخرى

ركضت إلى الهاتف أولاً، ليس هو، هرعت إلى الباب، وإذا بساعي البريد، استلمت منه الرسالة. وفيما كنت أصعد السلالم، رنّ الجرس مرةً أخرى.

ركضت إلى البابين، لا أحد، نظرت إلى الهاتف، ليس جرس الهاتف، وفيما كنت أصعد وأنزل باحثاً، وإذ بصوت طائر:

- غوغوك.. غوغوك.. غوغوك!

إنها ساعة حائط، إذ كانت هناك ساعتا حائط على جداري الصالة المتقابلين إحداهما جرسها يرنّ، والثانية طائرها يُغرِّد. انتهت نوبة عزف الساعتين وإذ بجرس الهاتف يرنّ.

- نازان خانم من فضلكم.

- نازان خانم ليسوا هنا يا سيدتي، لقد انتقلوا إلى اسطنبول.

وفيما كنت واقفاً في الصالة حائراً مشدوهاً، وأنا أسبح في عرقي من كثرة ما جريت وراء الأجراس من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى فوق.. جاءني صوت:

- دان.. دان.. دان!

أنا لا أفهم، كم جرساً يكون في البيت، وكم صوتاً، وكم ساعة تكون فيه! هذه المرة كانت ساعة حائط المدخل هي التي تدق.

تَعِبت وانتهيت من الجري هنا وهناك!..

تارة يرنّ جرس هذا الباب، وتارة جرس الباب الآخر.. وفيما أنا أركض نحو الأبواب، يرنّ جرس الهاتف. أصابني ارتباك، بحيث صرت أركض وراء صوت الجرس، لأجد أنها دقّات ساعة.

في هذه الأثناء رنّ جرس آخر.. كان اكتشاف مصدر صوت الجرس مستحيلاً هذه المرة. إذ كان جرس دراجة طفل صغير مرَّ من أمام البيت بدراجته.

حلّ الليل، ولم أستطع كتابة كلمة واحدة. لكنني أظن أنني قطعت

أربعين كيلو متراً جيئة وذهاباً داخل البيت، صعوداً ونزولاً جرياً وراء رنين الأجراس.. فقد جاء كل رجال وعمال الخدمات، من البقال حتى بائع زجاجات الماء. ورنّ الهاتف ثلاثين أو أربعين مرة. استلقيت على الفراش مُتعباً منهوكاً، وتمددت مثل ميتٍ.

قلت لنفسي:

– اليوم الأول يكون هكذا، والآن عَلِم الجميع أن لا أحد في البيت، وغداً لن يرنّ أي جرس.. وسأكتب كتاباتي.

لم تكد عيناي تغفوان حتى سمعت صوتاً لكنه ليس صوت جرس، شيء مثل مييك، مييك، مييك، لم أستطع تشبيهه بأي صوت أعرفه. أنا اعتدت رنين الأجراس ورضيت بها منذ زمن. رنين جرس، لا بأس، لا تفتح الباب، ولا ترد على الهاتف، يتوقف الرنين بعد برهة، لكن هذا الصوت لا يتوقف أبداً، سحبت اللحاف فوق رأسي، ما صار، سددت أذني بأصابعي دون جدوى، بدأت البحث عن مصدر الصوت.. هذه الغرفة لك، وتلك الغرفة لي.. أخيراً أليس هو صوت الجرو الصغير في الحمام؟

سكت الجرو المسكين عندما رآني، وراح يلف ويدور عند أسفل رجلي واضح جداً أنه جائع، وضعت كل ما وجدته في المطبخ أمامه، وعدت إلى الفراش.

توقف رنين الأجراس، لكن دقات الساعات لا تتوقف، والجرو لا يسكت، وبين الفينة والفينة كان الهاتف يرنّ.

انتصف الليل. حاولت تعطيل الساعات وإسكاتها، لكنها لم تسكت.. والجرو يهمر كلما ابتعدت عنه. أحضرته إلى غرفة النوم فصار يهمر كلما دخلت الفراش. أحببته، داعبته، رجوته، لا يسكت، أخيراً أخذته إلى جانبي في الفراش فسكت.

سكت الجرو، فبدأ كلب الحراسة في الحديقة ينبح:

- عو، عو، عو..

سأجن.. لا، لن أجن، لقد جُننت.

- اسكت ولك كلب ابن كلب اسكت.. اسكووت!..

حين أركض إلى النافذة لإسكات الكلب الكبير، يهمر الصغير، أصبح الصباح وأنا منشغل بالكلاب والساعات، وعندما أشرقت الشمس، بدأت أصوات الدجاجات، وبدأ صياح الديكة في الحديقة، كنت على درجة من الإعياء بحيث لم أهتم بأصوات الدجاج.

- جييك، جييك، جييك..

أمسكت قفص الكناري الذي فوق رأسي ورميته في الحمام، وأغلقت الباب عليه. لم أكد أغفو عشرة دقائق أو أقل، وإذ بي أهبّ من نومي فزعاً على صوت غليظ ظررر. فكّروا كم كنت مرتبكاً! فقد صعدت إلى السقيفة.. وهناك ثبت إلى رشدي، وبدأت أفكّر، أنا لن أستطيع أن أكتب سطراً واحداً في هذا القصر، أين الأولاد؟ أنا قربان لهم.. على الأقل عندما تقول اسكت، فإن الولد يخاف ويسكت. لكن هل تفهم الكلاب والساعات من اسكت؟ وهل تخاف الأجراس؟ طيب، ولكن هم ماذا يفعلون في هذا البيت؟ إن شخصين لا يكفيان للجري وراء أصوات الأجراس. يا له من بيت هادئ هذا الذي عثرنا عليه! سأذهب إلى الرجل الذي أسدى إليّ معروفاً وترك لي قصره، وأقول له:

- لقد عدلت، عليك أن تستأجر رجلاً لطيورك وكلابك!

أغلقت باب البيت، ومشيت مغادراً، وإذ برجل يقول لي:

- أهلاً وسهلاً! هل أنتم الذين ستحرسون القصر هذا الشتاء؟

كنت متضايقاً، ولكي أصرف الرجل عني، أجبته:

- نعم!

- بكم؟

- بكم ماذا؟

- احذر من أن تحرس بأجر زهيد، فقد استأجروا العام الماضي حارساً بخمسمئة ليرة، وكاد الرجل يجن، فهذا القصر اسمه قصر الأجراس.

دخلت كالريح على الرجل الذي أسدى إلي المعروف، وكان عنده في المكتب رجل آخر، وقلت له:

- لقد عدلت عن هذا العمل.

- لماذا؟

- قصر ضخم، لا إنس فيه ولا جن.. إنه هادئ جداً يا أخي سأنفجر.

- كنت أعرف ذلك. فأنت معتادٌ على الضوضاء والضجيج، ولا تستطيع العمل في مكان هادئ.. أنا أعرف هؤلاء الكتّاب! كلهم يبررون بقولهم. لو تهيأ لنا مكان هادئ لكتبنا كذا، وكتبنا هكذا.. وعندما يُتاح لهم المكان الهادئ، يقولون لقد تضايقنا.. هؤلاء هكذا، ليس لديهم شيء يكتبونه، ولذلك..

أسرعت بالخروج مغادراً، كي لا أرتكب جريمة.

ذهبت إلى بيتي، وهناك قلت أووووه، قلت ذلك، لكن رنين الأجراس ما زال يرنّ في أذني.

هيا نتسلّى يا أصدقاء

قالوا:

- هيا، نصعد إلى فوق.

قلت:

- ماذا سنفعل فوق؟

- ما هذا؟ وما يُفعل فوق؟ نتسلّى قليلاً.

نجم الدين بيك معلم سابق، ثم بدأ يعمل في الألبسة الجاهزة، رجل بدين جداً، في الستين من عمره على أقل تقدير.

تشبث الكليشيهاتي وارطان بذراعي قائلاً:

- لنتسلّى يا هو..

- أودُ ذلك كثيراً، لكن لديّ عمل!

كان مكتبي في خان كبير مؤلّف من مائتين وتسعين غرفة، وقد توطدّت صداقتنا مع الجيران في الخان يوماً بعد يوم، فكانوا يأتون إلى المكتب كل مساء ويقولون:

- هيا نصعد إلى فوق، ونتسلّى!

والمقصود بكلمة فوق هو حي بي أوغلو، ضبطت نفسي فترة طويلة، ثم لم أعد أحتمل، فقررت أن أذهب أنا أيضاً وأتسلّى معهم، إذ كنت متعباً من الشغل والعمل، وكنت أود معرفة كيف يتسلّى هؤلاء الأصدقاء.

جاءني الستة معاً في إحدى الأمسيات، نجمي، ووارطان، والسمسار جلال، والمجلّد عبدي، ونائل بيك، وصديق آخر لم أستطع حفظ اسمه بشكل من الأشكال، كانوا ينادونه أباجور، هل أباجور هي كنيته، أم هو لقبه، لا أعرف. كان الجميع ينادونه أباجور. ربما كانوا ينادونه كذلك لضخامة رأسه وكبر أذنيه.

بادرني السمسار جلال قائلاً:

- هيا نتسلّى قليلاً هذه الليلة.

وقبل أن أفتح فمي بالإجابة، قال نائل بيك:

- لا تتعب نفسك بدعوته، إنه لا يأتي، منذ شهرين ونحن ندعوه كل ليلة، فهل جاء؟

قال المجلّد عبدي:

- اعمل، اعمل، والنتيجة؟ سنرى أين ستضع هذه الأموال؟ تعال معنا ليلة وتسلّ قليلاً أنت أيضاً.

قال أباجور وهو يهز رأسه الضخم يميناً ويساراً:

- أنا لا أفهم أبداً! بعد أن يعمل الإنسان حتى المساء. من حقّه أن يتسلّى قليلاً في الليل.

قلت:

- إني قادم، أنا أيضاً قادم معكم هذا المساء..

- اي هَهْ تعيش.. خلّنا نتسلّى..

ازدحمنا السبعة معاً في سيارة أجرة واحدة، وصعدنا إلى بي أوغلو. فتساءل وارطان:

- هل نذهب إلى حديقة العائلات الصيفية؟

قال نجمي بيك:

- الخدمة ليست جيدة هناك، أفضل مكان هو تودوري، حيث نأكل هناك سمكاً طازجاً.

قال المجلّد عبدي:

- لنذهب إلى صمانلق[1].

دهشت فتساءلت:

- صمانلق؟

- اسم الخمارة هكذا، يقال لها صمانلق!

- لم يتفقوا بشكل من الأشكال على المكان الذي نذهب إليه. كان كل واحد يقترح اقتراحاً مغايراً للآخرين. فإذا ذكر أحدهم اسم مكان ما، كان الآخرون يبدون اعتراضاتهم قائلين:

- إنه قبو، ولا يمكن الجلوس فيه في هذا الحر..

- المازة هناك فاسدة.

- المكان هناك مزدحم جداً.

أخيراً وجّه نجمي بيك كلامه إلي متسائلاً:

- قل أنت، إلى أين نذهب؟

إن عدم المعرفة شيء غير مستحب، في أي موضوع كان، ولأنني لا أعرف أي مكان من أماكن اللهو والتسلية، لأنني لا أصعد كل ليلة إلى بي أوغلو للتسلية مثل أصدقائي، قلت:

- لنذهب إلى حيث تسهرون كل ليلة!

فردّ أباجور:

- لا يمكن. هذه أول سهرة لك معنا. لنذهب اليوم إلى مكان فيه موسيقى.. ولنلهو جيداً.

---

[1] المتبنة، المعلفـ

تمت الموافقة على كلام أباجور. فذهبنا إلى نادٍ كبير، مزدحم جداً، ولأن الكراسين يعرفون أصدقائي فقد أعدّوا لنا طاولة ملاصقة لمنصة المسرح، رغم ذلك الازدحام الشديد.

عندما رأيت هذا الازدحام المختلط من الرجال والنساء، ورأيت الأضواء.. وستائر المسرح المزركشة المقصّبة، وخاصة عندما هبّت على أنفي روائح اليانسون هبّة إثر هبّة قلت لنفسي:

- ولك يا أبله! جئت إلى هذه الدنيا حماراً، وستذهب حماراً.. اشتغل بابا اشتغل.. وما هو آخر هذا الشغل؟ نم مساءً باكراً مثل الدجاج، استيقظ صباحاً باكراً إلى العمل.. انظر كيف يلهو الناس، انظر كيف يعيشون حياتهم.

جاء الكرسون، فقال له نائل بيك:

- أولاً العرق! هات لنا زجاجة عرق كبيرة.

فسأل الكرسون:

- ماذا تريدون مازة؟ هل تريدون لحوماً ساخنة، أو أي شيء؟

- سلطة نخاع، لبن مع الخيار والثوم، سلطة فاصولياء، مخلل.. قال وارطان:

- سودة، جبنة بيضاء.

وفيما كانت الفرقة الموسيقية تعزف ألحانها الصاخبة، رفعنا الكؤوس:

- على شرفكم..

- في صحتكم..

يبدو أن نفسي كانت توّاقة جداً لمثل هذه التسلية، منذ زمن بعيد، فقد بلعت كأس العرق المثلج دفعة واحدة.. صعدت إحدى المغنيات على المسرح والأغاني التركية يجب أن تسمعها وأنت تشرب. إني أعجب لمن لا

يحبون سماع الأغاني التركية، فليأتوا، وليشربوا زجاجة صغيرة، وليستمعوا بعدها إلى الأغاني التركية..

كان نجمي بيك يشرب كأسه الثانية، وربما الثالثة، حين قال:

- آه المرحومة، أي امرأة كانت.. لم تأتِ إلى الدنيا هكذا امرأة بعد.

سألته:

- أي امرأة؟

- المرحومة الوالدة؟

أما الكليشيهاتي وارطان فصار يتنفس مطلقاً العنان لزفراته الحرّى.

فسألته:

- ما بك يا وارطان؟

أجابني بصوت اقتلعه وجاء به من أعماقه:

- آه، آه.. إن جوفي يحترق.. لكني لن أترك له آلامي هذه سُدى.

- أهي مسألة نسائية؟

- لا، ليست مسألة امرأة، إنها مسألة ميراث.

- كان المجلّد عبدي أسرعنا في الشرب.. ففيما كنا نشرب كأسنا الثالثة، أعتقد أنه كان يشرب كأسه السادسة، بدأ ينقر بشوكته على طرف صحنه، ولأنه كان في النادي حوالي أربعين شخصاً ينقرون بشوكاتهم على أطراف صحونهم منادين الكرسون، ولأن أصوات نقر الشوكات كانت تختلط بأصوات الموسيقى، فإن الكراسين ما كانوا قادرين على تمييزها.

أضف إلى أنه لم يكن هناك من يهتم بأصوات نقر الشوكات، لأن بعض الزبائن كانوا ينقرون بشوكاتهم على أطراف صحونهم، مجارين بذلك الفرقة الموسيقية موقّعين بها إيقاعاً ولحناً للمرأة التي تغني على المسرح، ومنهم من كان ينادي الكرسون بنقره ذاك. ولم يكن واضحاً من الذي يلحّن ومن الذي ينادي الكرسون..

احتدّ المجلّد عبدي، وضرب الصحن بالشوكة فقسمه قسمين، وصاح بصوته الحاد:

- كرسووون!

- وقف الكرسون الذي لن يستطيع الوصول إلينا بسهولة بين الطاولات المتراصة، وأشار بيده إشارة ماذا...؟

- زجاجة أخرى..

فيما كان نجمي بيك يغمغم بلا توقف:

- آه يا ميمتي، آه يا ميمتي..

قلت له:

- يسلّم رأسكم؟

- تسلم أنت.

- هل تُوفيت والدتكم حديثاً؟

- لا ليس حديثاً، ليس حديثاً يا أخي لكن نارها مازالت تحرقني، مضت حوالي سبع وأربعون سنة، كنت لا أزال في الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمري.

قال أباجور:

- الشيطان يقول لي، قُم واذهب، واستند إلى بيت المرأة وقُل. وراح أباجور يجهش بالبكاء، أما نائل بيك، فلم يكن يُسمع له صوت. فما إن شرب كأسه الأولى، حتى بدأ يغفو، ومال ذقنه واستند إلى صدره، وكانوا كلما رفعنا الكؤوس نخب الشرف، يلكزون نائل بيك، فيرفع الكأس بعينين نصف مفتوحتين، ويفرغهما في جوفه دفعة واحدة، ثم يعود إلى إغفاءته.

جاءت الزجاجة الثانية، ولم يترك المجلّد عبدي سُبَّة لم يسبّ بها الكرسون ولم يفتح الكرسون فمه، لكن ما يعتمل في داخله كان واضحاً، ولسان حاله يقول «ولك احمد ربك أنك زبون، وإلا لكنت أكلتك لقمة

واحدة..» ولم يكن ما يخطر ببال الكرسون غير ممكن الحدوث، فالمجلّد عبدي رجل صغير البنية بحيث يستطيع الكرسون أن يضمه بشوكته ويبلعه بلقمة واحدة.

وما كان بوسعي إلا أن أحار لهذا السلوك العدواني الذي أظهره الليلة المجلّد عبدي اللطيف جداً. ماذا جرى لعبدي؟ انقلب إلى كتلة بارود متفجّر. فبعد أن تخلّص منه الكرسون بصعوبة، التفت إلى ضارب الطبلة، وراح يمطره بوابل من شتائمه، فالطبّال لا يضرب على الطبلة إيقاعاً صحيحاً..

أعجبني السمسار جلال على مائدة الشراب، من بين جميع الأصدقاء، فهو ليس مثل نجمي بيك دائم البكاء وهو يصرح «آه يا ميميتي»! ولا هو مثل نائل بيك دائم الإغفاء ولا هو مثل المجلّد عبدي يتحرَّش بهذا وذاك. بل كان يتكلم بحلاوة عن ذكرياته العسكرية.

- كان لنا نقيب اسمه صبري بيك، لا أفضله عليكم، كنت أعشق لعبه للبريدج يا أخي. كان يلعب البريدج لعباً.

كان السمسار جلال عجوزاً ناحلاً، تساقط شعره، فاستبدّ بي الفضول لمعرفة ما إذا كان قد دُعي للاحتياط للمرة الثالثة أو الرابعة، حتى يرتبط بذكرياته العسكرية كل هذا الارتباط.

- لم يكن في فرقتنا من يلعب البريدج مثل النقيب صبري بيك. لا أنسَ أبداً إحدى الليالي في نادي الضباط.

سألته:

- جلال بيك، هل سُرِّحْتُم من الخدمة حديثاً؟

- ماذا تقول؟ كانت الحرب العالمية الأولى في بداياتها.. من يعلم ربما صار صبري بيك، الآن باشا، وربما أُحيل إلى التقاعد، من يدري.. إن كان حياً فلتطن أذناه، وإن كان ميتاً فعليه رحمة الله؟ مرة نحن وصبري بيك.

لكز الكليشيهاتي وارطان، نائل بيك الغافي، ورأسه واقع فوق صدره، وقال له:

- على شرفكم يا نائل بيك..

- في صحتكم..

- صحة وعافية..

وبدأ وارطان يشرح خطة جناية مرعبة:

- أنا لست في المال.. لكنهم يأكلون حقي! زابيل واحد، كيفورك اثنان، آرتين ثلاثة، هراير أربعة، قره بيت خمسة.. إن مسدساً واحداً لا يكفي من أجلهم جميعاً.

سألته:

- هل ستقدمها هدايا لهم؟

جحظت عيناه الداميتان وأجابني:

- أنا وهؤلاء أولاد أخوة أشقاء! سأرسلهم جميعاً إلى جنة الحمير..

رفع المجلّد عبدي كأسه لشخصين يجلسان على بعد ثلاث طاولات عنا وهو يقول:

- على شرفكم يا أصدقاء!

فرفعا، هما أيضاً، كأسيهما نخب الشرف.

قلت لعبدي:

- هل تعرفهما؟

- ما معنى هذا، ألسنا من أمة نبي واحد؟ إذن فنحن أخوة.

- ربما هما ليسا مسلمين.

- يا أخي ألسنا جميعاً عبيداً لإلهٍ واحدٍ؟

- وإذا كان بلا دين..

احتدّ عبدي، فصاح:

- ولك ألسنا بني آدم.. إذن فنحن أخوة.

دعا المجلّد عبدي الرجلين اللذين شرب نخبهما، إلى طاولتنا، ولما صرنا تسعة أشخاص دمجنا الطاولتين ووحدناهما، وتعرّفنا على القادمين الجديدين.

كما أيقظوا نائل بيك وعرّفوه بالقادمين. أحدهما مصور. والآخر مساعد صيدلي.. أما نجمي بيك فلم يكن واعياً لأحد.. كانت عيناه تفيضان بالدموع، بكاءً على والدته التي توفيت قبل سبع وأربعين سنة وهو لا يفتأ يغمغم:

- آه يا ميمتي، آه يا ميمتي.. أيُّ امرأة كانت يا عالم.

والسمسار جلال يردد:

- في ميدان البريدج، فإن نقيبي، أقسم بشرفي أنه لم يكن في الفرقة كلها من يفوق النقيب صبري بيك في لعبة البريدج يا أخي..

نسي المجلّد عبدي ضيفيه اللذين دعاهما إلى الطاولة، ورمى إحدى المغنيات بزجاجة عرق فارغة، تكهرب الجو فجأة. ولما اتَّجه الجميع نحونا، اضطر المسكين عبدي لاتخاذ موقف الدفاع عن نفسه، ولصغر حجمه، سحب سكينه، وقفز فوق الطاولة. وحين كاد المكان ينقلب إلى ساحة معركة، تأبط رئيس الكراسين أشجع الأصدقاء عبدي، تحت إبطه، وأجلسه في مكانه مثل بقجة.

قال المصور أحد الضيفين:

- هذا البلد بحاجة إلى حرية الضمير أولاً!

وبدأ أباجور يبكي، فقلت له:

- عيب! أيُبكى من أجل امرأة؟ ألا تقبل المرأة الزواج منك؟

- إني متزوج!

- طلق زوجتك.

- المرأة التي أحبها متزوجة أيضاً.

- ألا تبادلك حباً بحب؟

- إنها لا تعرفني حتى..

- أوجد وسيلة، وعرّفها على نفسك..

- لا أعرف عنوانها، لقد رأيتها في السينما العام الماضي، تبعتها، ركبتِ العربةَ مع زوجها وذهبت، بعد ذلك لم أعثر للمرأة على أثر.

ثم راح يضرب صدره بجمع يده وهو يردد:

- هذا العشق سيقتلني.

لم تعجب سلطة الفاصولياء مساعد الصيدلي فقال:

- لتعمل زوجتي سلطة الفاصولياء، ولتروها، إنكم تأكلون أصابعكم معها.

ثم راح يُسهب في شرح مواهب زوجته في تحضير سلطة الفاصولياء.

لما جاءت الزجاجة الرابعة، لكزنا نائل بيك وأيقظناه. أما نجمي بيك فقد سحل عن الكرسي، وتدحرج إلى تحت الطاولة حيث التفّ بقائمتها وراح يبكي أمه وهو يردد:

- آه يا ميمتي.. لقد تركتني يتيماً!

وبعد قليلٍ نزل مساعد الصيدلي أيضاً إلى جانبه، تحت الطاولة، وراح يشرح له طريقة تحضير زوجته لسلطة الفاصولياء.

ضرب وارطان الطاولة بقبضته، وراح يُعدّد أسماء الأشخاص الذين سيقتلهم:

- زابيل واحد، كيفورك اثنان، آرتين ثلاثة، هراير أربعة.

سمعت صرخة مدوية:

- حرية الضمير أولاً..

ثم لم أعد أميّز كيف اضطرب الجو فجأة.. إذ خلت القاعة الفخمة

فجأة، وأمسك كرسونان أو ثلاثة بكل واحد منا، ورأيت طيران المجلّد عبدي في الهواء وسكينه بيده. أما أعلى الأصوات فكان صوت أباجور وهو يصيح:

- هذا العشق سيقتلني، اتركوني سأقتل نفسي!

- سلطة الفاصولياء، تحضرها زوجتي.. وأي سلطة تحضر..

- آه يا ميمتي.. إلى أين ذهبت وتركتني يتيماً؟

- عندما يذكر البريدج فإن نقيبنا صبري بيك. لا أنسى أبداً..

رأيت نفسي في الشارع، ونائل بيك ممدداً على الرصيف بجانبي وهو يغفو. وإلى جانبه الكليشيهاتي وارطان يشرح له كيف سيقتل أقاربه الخمسة بسبب مسألة ميراث. أما المجلّد عبدي الذي حمله الكرسون مثل صرة ورماه من أعلى السلالم فكان يسبّ الظلام:

- ولك.. أنا أعمل..

وفيما كان نجمي بيك يبكي أمه، آه يا ميمتي. كان أباجور يضرب صدره بقبضته لفقده المرأة التي أحبها.

وكما أنني لا أعرف أبداً ماذا فعلت، كذلك فإني لا أذكر أبداً ما الذي حدث. لأنني كنت بعد قليلٍ قد أضعت تماماً رأس الخيط. فقط أذكر مثل خيال أنهم أركبونا سيارة شرطة.

جاء الأصدقاء جميعاً مساء اليوم التالي، نجمي بيك، والكليشيهاتي وارطان، والسمسار جلال، والمجلّد عبدي، ونائل بيك، وأباجور..

قال المجلّد عبدي:

- ولكنا تسلّينا جيداً ليلة البارحة.

فسألته:

- ما هذه الزرقة حول عينك يا عبدي؟

- اصطدمت بالباب قبل قليل.. وما لشفتيك متورمتان؟

- لا أعرف.. ربما هي متحسسة..

قال نائل بيك:

- هيا نصعد إلى فوق.

فأجبته:

- فلنصعد طبعاً. نتسلّى قليلاً.

كنت قد بدأت أشعر بطعم الحياة فصرنا نصعد كل ليلة إلى فوق ونتسلّى. لكنّا لم نكن نعود إلى مكان سهرنا فيه ليلة، قبل مرور أسبوع. وعندما نذهب بعد أسبوع كان صاحب النادي، والكراسين يستقبلوننا بالترحاب بوجهٍ بشوشٍ، كأن لم يحدث شيء، ولأنهم يعرفوننا كانوا يرحبون بنا بأسمائنا:

- تفضلوا!.. تفضلوا!

سبّب المجلّد عبدي بعض الإزعاج الليلة الماضية، وعندما همَّ رجال الشرطة بالتدخّل، لم يتركهم الكراسين، وقالوا:

- رجاءً يا سيدي، إنهم ليسوا غرباء، إنهم زبائننا الدائمون، لا تزعجوا أنفسكم نحن نضربهم.

اعمل، اعمل، العمل لا ينتهي.. على المرء أن يعرف اللهو أيضاً في الحياة.

عافاكم الله، أشعر هذه الليلة بأضلاعي تتكسر، وهناك كدمة على الطرف الأيسر من وجهي، هل اصطدمت بشيء ما؟ أم ماذا؟..

بطل الهز والدعبلة

كانت مسابقة للرقص تجري في النادي، وكان كل ثنائي من الراقصين يبذل قصارى جهده، ويبرز أحسن ما لديه على مدى الساعتين الماضيتين. فمن يقفز، ومن يهتز، ومن يرتجف، ومن يتشابك مع شريكه كمتصارعين، ثم يبتعدان ويبتعدان وينقضان على بعضهما فجأة. وكلّ منهم يركل الآخر.. والذين يدورون في الهواء مثل دولاب، والمرتجفون، والمرجفون، والماشون على أيديهم ورؤوسهم، والذين يقلبون قلبات في الهواء.

وفجأة انطلق صوت استغاثة عند باب النادي، كان رجلاً مسناً يصيح ويستنجد:

- يا عالم، ألا توجد شرطة؟ ما هذا؟ ألا تتأثرون لأولاد البلد؟ لقد وصل الدم للركب، الشباب مشتبكون ببعضهم رجالاً ونساءً، ولا أحد يدخل بينهم لينقذهم.. وبعد جهد جهيد استطاعوا أن يُقنعوا الرجل أن هذا نوع من أنواع الرقص، ولا علاقة له أبداً بالعراك والشجار.

كانت حرارة الرقص قد اشتدت فوصلت إلى أعلى درجاتها عندما دخل من باب النادي ثنائي ملتف ببعضه. مرَّ كالسهم وارتمى على حلبة الرقص. كانا مسنين، فالرجل في الخمسين تماماً من عمره، أما المرأة فكان عمرها يتجاوز الخامسة والأربعين، كانا يرقصان رقصاً وأيّ رقص! رقص الهز والدعبلة تماماً وعلى أحسن ما يكون.. يفترقان عن بعض وهما

يرتجفان، ثم يعودان فيلتفان ببعضهما وتتشابك أيديهما وسيقانهما. كان الرجل يقذف بالمرأة في الهواء، ثم بعدها يتقوّس على ركبتيه ويهتزُّ يميناً ويساراً ثم يقذف بنفسه في الهواء، قذفة يكاد رأسه يلامس بها السقف. يديران ظهريهما لبعضٍ، ويتناطحان بمؤخرتيهما، ثم يرتجفان بجلجلة، وتلتصق المرأة بسيقان الرجل، ويلتصق الرجل بتنورة المرأة. أمسكوا بهما، فهذان طائران على الأرض، وسمك في البر. انزلاقهما من بين سيقان بعض.. وانسيابهما كالسمك..

ويبدو أن الجاز قد هاج هو الآخر.. فضارب الطبلة كان يرمي عصاه في الهواء، وفيما هي تدور في الهواء، كان هو أيضاً يقلب قلبة في الهواء. أما نافخ البوق فهو زنجي.. جسم الإنسان يحوي مئتين وثماني عظمات. لكن لا بد أن جسم هذا الزنجي يحوي ألفين وثمانمئة عظمة.. وكلها ترقص وتُفرقع كفرقعة الأصابع، ينزل على رأسه إلى الأرض، ويرفع مؤخرته وطرفه السفلي إلى الأعلى، ثم يصرخ من أعماقه صرخةً مدوية «يووهي ي»!

والزبائن.. دعوا الآخرين. ويكفي أن أشرح لكم وضعي، بدأت في البداية أستنكر قائلاً، أيُّ نوع من الرقص هذا؟ وفيما كنت أردد هذه رذيلة، مذيلة.. فقدت نفسي، ولا أعرف كيف عثرت عليها في الحلبة.. ولكن أي عثور.. أأرجوحة أنت أم متأرجح يا رجل؟ ولك ماشي الحال.. أنا لا أعرف هذا الرقص.

- وهل هناك من يعرف هذا الرقص؟ هذا شيء مثل الديمقراطية واحد يقفز إلى ذلك الطرف، وآخر يقفز إلى هذا الطرف..

ما عليك إلا أن تتلاءم مع قوة حرارة الجاز وتنطَّ نطاً..

من يضرب بيديه، ومن يضرب برجليه، ومن يضرب برأسه.. الأرض تُزلزل. ورجل عجوز يصرخ:

- أوقفوني أرجوكم! فأنا لا أستطيع الوقوف من تلقائي. لقد حدث لي شيء ما . وأُصبت بجلطة في قلبي، سأصبح بلاء على رؤوسكم.

ولكن ما كان كلام أحد مفهوماً..

أتعرفون ما رقص الهز والدعبلة هذا؟ إذا كان عمركم قد تجاوز الأربعين مثلي فستبادرون إلى القول:

- ما هذه المهزلة يا عالم..؟

- ما هذه المهزلة يا عالم..؟

- ما هذه المهزلة يا عالم..؟

هكذا وفيما أنتم ترددون كلماتكم تلك، تبدأ أصابع يدكم اليمنى السبابة والوسطى والخنصر بالنقر على الطاولة مع إيقاع الجاز، وأنتم ما تزالون ترددون كلماتكم، ولكن لانسجامكم مع أنغام الجاز، فإنكم ترددونها بحرارة وبسرعة أكثر:

- ما هذه المهزلة يا عالم.. ما هذه المهزلة يا عالم.. ما هذه المهزلة يا عالم..

رويداً رويداً، تنتقل الحركة إلى قدميكم، فتبدأ قدماكم بالاهتزاز، ثم ترتجف ساقاكم، وتبدأ كتفاكم بالتراقص، من ناحية أخرى أنتم ما تزالون ترددون:

- ما هذه المهزلة يا عالم.. ما هذه المهزلة يا عالم..؟

هكذا رويداً رويداً، تبدأ رقبتكم، وأذناكم، وطرفكم السفلي بالاهتزاز والرقص، بحيث لا تستطيعون ضبط أنفسكم. عندها، إذا كان في الحلبة مكان، فإنكم تهجمون على الحلبة، وإذا لم يكن فيها مكان، فلا بأس من الصعود فوق الطاولة.. وطبعاً لن تستطيعوا الثبات طويلاً فوق الطاولة، فتصعد الطاولة فوقكم تارة، وتصعدون أنتم فوقها تارة أخرى.. حماكم الله يا أخي، فشاربا المرء وأنفه وأذناه، أي أعضاؤه كلها .. تهتز وترتجف، كل على حدة.

وبعدها يا سيدي، فإنك تتشبث بأيّ امرأة تطالها يدك. هل المرأة تشبَّثت بك، أم أنت تشبَّثتَ بالمرأة، هذا غير واضح مطلقاً.. فهو شيء يُشبه معركة الحرية، والأمور مختلطة. متداخلة ببعضها، لا البائع معروف، ولا الشاري.. وإذا طالت يدك رجلاً، وأنت تظنه امرأة، فهذا حظك ونصيبك.. ولكن من ناحية أخرى أنت لا تزال تردد بسرعة:

- له له له.. ما هذه المهزلة.. له.. له له..

فإذا لم ترأف موسيقا الجاز بالراقصين وتتوقف، فإنك لا تستطيع إيقافهم ولو ربطتهم بسلاسل الباخرة المدرّعة ياووز. حتى عندما تتوقف موسيقى الجاز. فإن الراقصين لشدة انفعالهم، لا يستطيعون التوقّف دفعة واحدة هكذا، بل يهتزون ويتدحرجون، ويهتزون ويتدحرجون، ويتوقفون رويداً رويداً بالتدريج.. ولكن حتى هذا لا يمكن تسميته توقفاً، إنه ارتجاف، واهتزاز، وشهقات وآهات، تستمر هكذا حتى بعد النوم.

وهل تقف موسيقى الجاز بسهولة؟ البدء برقص الجاز مصيبة؟ أما التوقف فمصيبتان.. فلا أحد يقف ليرتاح.. الكل يهتز، يتمدد، يتدحرج، يقفز، ولكن لا أحد استطاع أن يتفوق على ذلك الثنائي المسن، الذي مرَّ من الباب كالسهم وارتمى في الحلبة. الحق يقال: «هذان سيفوزان بالمسابقة». من حيث أنهما سيفوزان، هما سيفوزان، ولكننا لا نستطيع التوقف عن الرقص لنقول لهما لقد فزتما بمسابقة الرقص. يبدو أنه لن يستطيع إيقاف هذه الزلزلة إلا قواتٌ من الشرطة، هذا إن استطاعت أن تضبط نفسها، فلم تنسجم مع موسيقى الجاز..

كنت أقول لنفسي، الموت هو نهاية هذا الرقص، ثم أُردف، موت موت، الموت واحد، اهتز وتدعبل ولا تسأل..

أخيراً توقفت موسيقى الجاز، وعدنا للجلوس في أماكننا، مع ذلك ما زال المرء غير متمالكٍ لنفسه، ويردد ببطء.

- ما.. هذه.. المه.. ز.. له.. يا عا.. لم..!

كان توقف الثنائي المسن أشد صعوبة، وكان المسكينان في حالة يرثى لها.

ففي رقص الهز والدعبلة هذا، لا يبقى الراقص على حالته التي بدأ بها. إذ هو يمارس التعري رغماً عنه. فمنهم من يسحل بنطاله، ومنهم من تسحل جواربه أو جواربها، ومن تسحل دكة تنورتها.. وتنقلب تلك المسماة حلبة رقص، لتصبح أشبه بمستودع خلّفه وراءه جيش منهزم.. أحذية وربطات عنق، وقطع ألبسة، ومناديل..

بدأ الكلُّ يلملم نفسه، فمن وضع يده أمامه، ومن وضع يده خلفه.. أما الأكثر انفعالاً واهتياجاً فكانت أيديهم لا تزال تنقر وتفرقع بإيقاعات الجاز.

أخيراً استطاع الثنائي المسن أن يتوقف.. ذهب المشرفون على مسابقة الرقص إليهما، وقالا لهما:

- مبروك، لقد فزتم بالمركز الأول.

نظر الرجل المسن مشدوهاً، وتساءل:

- أيُّ مركز أول؟

- لقد صرتم الثنائي الراقص الأول.

- أيُّ رقص هذا؟

- رقص الهز والدعبلة..

- هل جننتم؟ أي هز؟ وأي دعبلة؟

- يا سيدي يا روحي، أما صار لكم فترة وأنتم ترقصون على الحلبة؟.. لقد أُعجبت اللجنة برقصكم، فاختارتكم الأول.. مبروك.

احتدَّ الرجل المسن وصرخ:

- اغربوا عن وجهي! أنا لم أرقُصْ ولا مرقُصْ. هل سأرقص بعد

هذا العمر؟ التوبة لله. لقد خرجت زوجتي من البيت صباحاً، لزيارة أحد المعارف. ركبنا الحافلة أولاً، واهتززنا فيها. ثم ركبنا هذا الذي يمسى الباص الشعبي. واهتززنا فيه إلى أن وصلت أحشاؤنا إلى أفواهنا. وحين وصلنا هنا فتح باب الباص بشكل ما فاندفعنا من داخله، ووقعنا في هذه الساحة. ثم سمعنا يا سيدي صوت استغاثة النجدة.. ألا تتأثرون لأولاد البلد؟ لقد وصل الدم للركب، أما من منقذ؟ ولأننا أبوين، فإننا لم نحتمل ما سمعناه وقررنا أن ننقذ أولاد البلد، فرمينا بأنفسنا وسط هذا الزحام. لكنا، فيما كنا سننقذ أولاد البلد، لم نستطع إنقاذ أنفسنا، ولك اترك أولاد البلد.. أبو البلد، وأم البلد صارا مهددين بخطر الضياع. وفيما كنا نجهد في إنقاذ أنفسنا، وقعنا وسط صخبٍ وضجيجٍ وفوضى. صرنا نقع ونتدحرج، ولا نتمالك أنفسنا! التصقت زوجتي بي ونحن نتدحرج على الأرض. أهو زلزال أم ماذا؟ من يدفعنا يُوقعنا، ومن يضربنا يُوقعنا، وفيما نحن نحاول النهوض والوقوف على أقدامنا، تأتينا ركلة ترمينا أرضاً ثانية. أيُ رقص يا بني؟.. أسعفوني بكأس ماء أرجوكم. هل ارتفع ضغطي إلى عشرين درجة، أو إلى خمس وعشرين درجة؟ الله أعلم. أحضروا لي طبيباً، إكراماً للإنسانية، فإني أموت.

بقينا للقافلة الرابعة

إثر أحداث عام 1956 في المجر، لجأ بعض الهاربين من المجر إلى تركيا، وكان أغلب هؤلاء المجريين الذين اختاروا الحرية، واستضيفوا في مضافة في حي سيركجي، من النساء. وكان محبو الخير من الرجال الأتراك يتوافدون إلى دار الضيافة هذه، زرفات زرفات.

الرجل 1- عفواً يا بيك، تُوجد دار ضيافة في سيركجي، أين تقع يا ترى؟ أهي هنا؟

الرجل 2- إلى الأمام قليلاً. فلأصحبكم إليها.

الرجل 1- إلى أين تتوجهون سيادتكم؟

الرجل 2- وأنا أيضاً إلى هناك.

الرجل 1- أوه، أوه، جيد، جيد جداً. كتبت الجرائد أن القافلة الثالثة ستصل اليوم، ولكن..

الرجل 2- لقد وصلت، إذن هل أنتم أيضاً ذاهبون إلى هناك؟

الرجل 1- أي نعم.. لألقي نظرة، فقد قَدِمت البارحة القافلة الثانية، هكذا أخبرني خورشيد بيك، إنه رجل محترم.. لا أفضله على سيادتكم، ولأنه بحاجة إلى شغالة، فقد جاء إلى هنا وانتقى امرأةً جيدةً من القافلة الثانية، وهو ممتن جداً، فقلت في نفسي، فلآتِ وأرى، فإن وجدت واحدة مناسبة لعمل ما، آخذ المسكينة وأساعدها، أرجو ألا يكون سؤالي معيباً، هل أنتم أيضاً ذاهبون إلى هناك؟

الرجل 2- نعم.

الرجل 1- هل لكم قصد، أم لإلقاء نظرة فقط؟

الرجل 2- هي زيارة، وهي تجارة. فأنا أيضاً جئت إلى هنا بناء على توصية من صديق، إذ لي صديق اسمه مليح، وهو في الحقيقة شاب شاطر جداً. إذ كان هنا مع وصول القافلة الأولى. وقد شرح لي مطولاً ولم ينته. فلم أطق صبراً، وجئت لأتأكد من صحة أقواله.

الرجل 1- أصحيح؟ إذن توجد نساء جميلات جداً، أليس كذلك؟

الرجل 2- ماذا تقولون؟ نعم جميلات وأيُّ جمال.. أخبرني مليح أنه حَار فيمن سيساعد منهن.

الرجل 1- هل تفضلتم وقلتم مساعدة؟ مساعدة من أي نوع؟

الرجل 2- أيجوز أن تسأل من أي نوع؟ هؤلاء أما اخترن الحرية.. هن عندما اخترن الحرية، صارت مساعدتهم ديناً في أعناقنا.

الرجل 3- مرحباً يا بيكوات.. هل الطريق إلى دار الضيافة من هنا؟

الرجل 1- هل أنتم أيضاً إلى هناك؟ قولوا بأننا كلنا إلى هناك.. هيا تفضلوا لنذهب..

الرجل 3- إذن أنتم أيضاً إلى هناك؟

الرجل 1- ونحن إلى هناك. لا يجوز أن لا نذهب طالما اخترن الحرية، إنها مسألة حرية، وهي لا تشبه أي مسألة أخرى، إن مساعدتهن واجب مفروض على أعناقنا يا سيد.

الرجل 3- لقد كتبت الجرائد، هل قرأتم؟ إن امرأة من هؤلاء القادمات قالت: امنحوني رخصة فأنا سأنطلق وأعمل بحرية. هل هذا صحيح يا ترى؟

الرجل 1- هذا لا يهمنا، لا علاقة لنا بهذا البتة.

الرجل 3- إني قادم من بيره جيك.

الرجل 2- أمن أجل المساعدة؟

الرجل 3- يمكنك أن تقول ذلك. إذ على المرء أن يمد يد المساعدة دوماً لبني البشر، لبني آدم، أليس كذلك؟

الرجل 1- كذلك.. الروح فداء للحرية يا أخ.. أنا أموت من أجل الحرية. عندما يقدّم خورشيد بيك مساعدة لإحدى هؤلاء اللواتي اخترن حريتهن، فهل يجوز أن أتأخر؟

الرجل 3- أحد أصدقائنا خطب إحداهن فوراً.

الرجل 1- أوه، أوه جيد جداً. ولكن ألم تسمع امرأته بأنه خطب؟

الرجل 3- أي امرأة يا أخ؟ أنا أقول بأن الرجل خطب، هل يستطيع أن يخطب لو كانت له امرأة؟

الرجل 1- روحي، نحن عاداتنا هذه سيئة جداً، الزواج مسألة مغايرة.. العزوبية سلطنة يا أخي. لو كان الإنسان عازباً لخطب من مختارات الحرية هؤلاء، وخطب وخطب ما يشاء، على سبيل العون والمساعدة.

الرجل 2- وأنا أنوي أن أفعل هكذا. سأرى، إن وجدت جميلة شقراء.. لكن لي شرطاً واحداً، إن قبلت به تمّ الأمر.

الرجل 3- أرجو أن لا يكون سؤالي معيباً، ما هو شرطكم؟

الرجل 2- شرطي أن تصير مسلمة.

الرجل 3- تقبل ذلك مثل العسل، بل وترقص أيضاً.

الرجل 1- يا روحي يا أخي أيمكن أن لا تقبل، أين الرجال في هذا الزمن؟

الرجل 3- صحيح والله، فإن لجارتنا زبيدة خانم، الله لا يعطيكم، ست بنات تماماً. ومنذ كمّ من السنين وهنَّ يدعون الله، وينتظرن الزواج.

الرجل 1- طبعاً، فصنف الرجال صار في السوق السوداء.

فبإمكانك أن تجد عشرين أو خمسين غراماً من البن، ولكن ليس هناك درهم رجل.

أعلنتُ في الصحف مرة إعلاناً يقول: «تلزمنا فتاة قادرة على العمل، ولا تتجاوز العشرين من عمرها» يا إلهي. حطَّت فوق رأسي كل نساء وفتيات اسطنبول.. أتريد سمراء أم شقراء، أم بيضاء كالقطن، أم حنطية؟ فيهن القصيرة، والطويلة، والمكتنزة، والناحلة، والبدينة.. ما تشتهيه نفسك.

الرجل 2- طالما الأمر كذلك، فلماذا تبحث هنا عن عاملة؟

الرجل 1- يا عيني عليك يا أخ. الآن تكلمت كلاماً مُعيباً، نحن جئنا هنا للمساعدة، ثم هل المرأة المحلية والمرأة الأجنبية سواء؟ المرأة من هذه الأقوام الأجنبية تبقى دائماً ناحلة العود قوية البنية. أما نساؤنا فبعد أن تولد إحداهم مرة واحدة، امسك بها وارمها. إذ تتراخى مفاصلها، ويترهل جسمها، نساؤنا المحليات ينتفخن ويصبحن مثل القربة عندما يرين الزوج.

الرجل 3- لا ا ا.. عفواً لهذا. فنحن أيضاً لدينا الآن أنواع من النساء والبنات.

الرجل 1- التوبة لله.. هل قلنا لا يوجد؟ الآن يوجد كل شيء، أنا أتكلّم عن الزمن القديم. الآن ونحن نتقدم يوماً بعد يومٍ أصبحت البنات أجمل وأجمل يا روحي.. وبسبب حيوية الاقتصاد أصبحت النساء ناحلات كالسمكة. أما إذا حدثت غداً حركة ما واستراحت نساؤنا المحليات فإنهن والله ينتفخن مثل القربة.

الرجل 2- ليس هكذا بالضبط. ألم تذهبوا إلى شيشلي، ونيشان طاش وماجكا؟ اذهبوا إلى تلك الأماكن وشاهدوا، فهناك بنات بدراجات ما شاء الله..

الرجل 1- أستغفر الله.. أنا لا كلام لي على شيشلي أو ميشلي. مؤكد أنه توجد هناك، ولكن هل يمكن أن نحظى أنا وأنت بامرأة من هناك؟

فمن قائلة هذا لسانه أعوج، ومن قائلة هذا قرباطي، هل توجد هناك من تعجب بي؟ أما المرأة الأجنبية فأنا قربان لها، لا تعرف لساناً ولا تعرف قرية. المرأة الحقّة يا صديقي هي تلك التي لا تتكلم كلمة واحدة.

الرجل 3- تقدّم كل شيء الآن. اذهب إلى الشواطئ وأدرْ عينيك فيها، وانظر هل تختلف نساؤنا في شيء عن النساء الأجنبيات؟

الرجل 1- اللّه اللّه.. لقد ازداد اتصالنا بالأمم الأجنبية يا أخي، وكلّ مُجبر على أن يُشبه الآخر.

الرجل 2- يعني أنت ماذا تقصد؟ تكلّم بصراحة يا صديقي. هل نساؤنا أسفل من أولئك؟

الرجل 1- قل التوبة! ما هذا الكلام؟.. لو سمعنا أحد لابتلينا بمتاعب بلا سبب يا روحي. أستغفر اللّه.

الرجل 3- لكن كلامك يفيد هذا المعنى. ولك أنت ماذا تقول؟ عندما يزورنا الفنانون الأجانب ويسألهم صحفيونا، كيف رأيتم نساءنا؟ فالجميع يتلمظون وهم يجيبون بكلمة واحدة لا ثاني لها يا سلام.

الرجل 1- يا روحي تلك مسألة، وهذه مسألة أخرى.. إنها مسألة ذوق ومجاملة. رجل أجنبي وسُئل مرة.. بمَ يُجيب؟ هل يُجيب ويقول نساؤكم لا تساوي خمس ليرات؟

الرجل 3- وهل يجرؤ على ذلك؟ ففي مسابقات الجمال نساؤنا يصبحن بطلات جمال العالم، ويُتوجّنَ ملكات للجمال، واللواتي يشتركن في المسابقات هن الـ... ولو اشتركت الأخريات لانقطعت أنفاس لجنة التحكيم بشرفي يا أخ.. فلدينا جميلات، لا تساوي عروس البحر شيئاً بجانبهن..

الرجل 2- لا !! يا صديقي.. أنت تتحامل علينا بصراحة.

الرجل 1- لست متحاملاً أبداً، فإن كانت نساؤنا المحليات جميلات، فلماذا جئتم إلى هنا لتختاروا نساء أجنبيات؟

الرجل 2- ما هذا الذي تقول؟ هؤلاء اخترن الحرية يا سيد .. وعلى الإنسان أن لا يقصر تجاههن. وأن يبذل كل ما بوسعه من أجلهن.

الرجل 3- دجاجة الجار تبدو لعين جاره إوزة.

الرجل 1- فهمت، ذلك صحيح.. وإن ظننتموني عدواً لدوداً للحرية، مع إننا جميعاً إخوان في الحرية.

الرجل 4- عفواً يا بيكوات من أين الطريق إلى دار الضيافة؟

الرجل 2- ونحن أيضاً ذاهبون إلى هناك.

الرجل 4- إذن فالجميع إلى هناك، تلزمني ضاربة آلة كاتبة لمكتبي.. لذلك..

الرجل 5- هل طريق دار الضيافة من هنا؟

الرجل 3- من هنا يا سيدي، كلنا ذاهبون إلى هناك.

الرجل 1- كم شخصاً ممن اختاروا الحرية، يوجد في هذه القافلة الثالثة يا أصدقاء؟

الرجل 4- ثمانون.. خمسة وأربعون منهم ذكور، وعشرة أطفال، والبقية نساء..

الرجل 1- أخرج الذكور والأطفال من المجموع، كم يبقى؟

الرجل 2- خمس وعشرون امرأة.

الرجل 1- لنسرع الخطا، فهناك قطيع من الرجال قادم خلفنا، لمن ستكفي هذه الخمس وعشرون امرأة، وكم شخصاً سيمكنه تقديم العون لهن؟ والله لو وقفنا بالدور لتقديم المساعدة. فلن يصلنا الدور.

الرجل 5- إنهن خمس وعشرون امرأة، ولكن لا تحسبهن كلهن. فالجريدة قد كتبت بدقة عن أشكالهن، وقياساتهن، وأوزانهن، وطباعهن، ووَضعُ كل واحدة منهن، فعشرة نساء منهن عجائز، وخمس منهن متزوجات.

الرجل 1- يا للأسف.. أرأيت..؟

الرجل 2- لقد نشرت الجريدة صورة إحداهن، إنها قنبلة، بشرفي، وإن رأيتها فسوف أكلمها زوج كلمات.

الرجل 1- امشِ يا بني، فالقنبلة لا تبقى لي ولك، ولا بد أن أحداً صادرها منذ مدة على أنها مريبة..

الرجل 4- ألم تكتب الجريدة عن الأخريات؟

الرجل 5- رجاءً يا أخ. هل هناك معلومات عن الجميع، اقرأها، إكراماً لله..

الرجل 2- مارغريت.. في الحادية والعشرين من عمرها. شقراء اللون، خضراء العينين، طولها مئة وثمانية وستون سنتمتراً. وزنها تسعة وخمسون كيلو غراماً.

الرجل 1- مقاييسها مناسبة.

الرجل 2- هي ناحلة قليلاً.

الرجل 5- جانيت.. في الثامنة والعشرين من عمرها.

الرجل 1- تجاوزها.. فقد جف ماؤها.

الرجل 5- ليزا.. متزوجة.

الرجل 1- تجاوزها.

الرجل 5- زوجها بقي هناك.

الرجل 1- انظر، هذه لا بأس بها، أعجبتني، ما لونها؟

الرجل 5- سمراء.

الرجل 1- اللعنة.. ليتها كانت شقراء.

الرجل 6- من أين نذهب إلى دار الضيافة؟

الرجل 2- ها هي ذي هنا، لقد وصلنا.

الرجل 1- أووو.. يا للازدحام!

الرجل 4- جاء الجميع منذ الصباح الباكر.

الرجل 5- مسافة طريقنا طويلة يا سيدي.

الرجل 1- واضحٌ جداً أن هؤلاء قد أصبحوا هنا، يا لشطارتهم!

الرجل 2- هل هنَّ اللواتي في الحديقة؟

الرجل 6- أغلبهن في الداخل.

الرجل 4- ليتهن يخرجن فنراهن.

الرجل 3- أتظنه مكان عرض أزياء يا أخي؟

الرجل 5- يا لأمها.. انظر إلى هذه الفتاة التي تنشر الغسيل. إنها ضاربة آلة كاتبة بالضبط.

الرجل 2- وتصلح أن تكون مربية أيضاً.

الرجل 1- إنها تصلح لكل شيء يا روحي.. ما شاء الله حولها.

الرجل 6- لا بد أنهم حجزوها منذ زمن طويل.

الرجل 1- أنا لا أفهم لماذا تختار هذه النسوة العجائز الحرية.. ما فائدة حريتهن يا أخي.. وهؤلاء الرجال لماذا يعوون؟ عليهم أن يقاتلوا هناك في بلادهم دفاعاً عن الحرية..

الرجل 5- جلب الأطفال أيضاً غير مفهوم.

الرجل 2- أنا أعرف أن المرأة المتزوجة يجب أن لا تفارق زوجها أبداً.

الرجل 1- لا يا أخي، لن يصلنا الدور في تقديم المساعدة، فالناس قد زحموا المكان.

الرجل 3- اللعنة، وصلنا متأخرين.

الرجل 5- ستأتي قوافل أخرى أيضاً.

الرجل 1- متى ستصل القافلة التالية يا ترى؟

الرجل 3- بعد يومين.

الرجل 1- إذن قل إننا بقينا للقافلة الرابعة، أرأيت هذا؟..

دعوة للزواج في علبة سجائر

قهر الله السجن. فهو لا يشبه أي شيء آخر، فما إن تمر على السجين سنة في سجنه حتى تبدأ رائحة المرأة تهب على أنفه من كل الجهات وهو سجين تلك الجدران الأربعة، فريح الجنوب تجلب رائحة المرأة، وريح الشمال تجلب رائحة المرأة، الرياح هكذا، فمن أين ما هبَّت الريح تفوح في أنف السجين رائحة المرأة.

إذ تهيمن المرأة على الجو بشكل يجعل قصبة أنف الرجل تئن ألماً.

تشقّ الجبسة، رائحة المرأة.. تتذوق العنب، رائحة المرأة، تقضم التفاحة، رائحة المرأة، تفرك الدراقة، رائحة المرأة..

عندما يفتح الباب في الشتاء لا يدخل برد، بل تدخل امرأة، وفي الخريف لا تدخل من بين قضبان النافذة الحديدية ريح، بل تدخل امرأة.

ما إن تمضي سنة سجن، حتى تتشبع الأجواء كلها بروح أنثوية، حتى الأوراق والكتب تصير أنثوية الرائحة.

وتعود الحياة فتعيش كل النساء اللواتي يحفظهن السجين في ذاكرته، وتقف أمام ناظريه، بدءاً من الفتاة ابنة الثامنة عشرة، التي لامس مرفقه مرفقها في مقعد السينما .. إلى زوج الحذاء المطاطي الذي تعقّبه تحت المطر الغزير، حتى شيشلي قبل خمس وعشرين سنة.. إلى العينين الخضراوين اللتين استمتع بمرآهما خمس دقائق في رحلة الباص العمومي،

قبل خمس عشرة سنة، واللتين لم يرهما بعد ذلك أبداً.. وتكبر هكذا أصغر الذكريات والخواطر وتكبر، كأنما تقف خلفها وتظللها شمس الغروب.

السجن عملية صعبة يا روحي. أوَ تدري أن الأمور كلها تسير بالعكس في فترة السجن تلك، وأنك تحس أن أول من مهد لك طريق الفقر، وطريق الانحراف هنَّ النساء. ألم تقع خلف الأبواب الحديدية؟ إذن فأول من ينقطع عنك هنَّ النساء أولاً تمر واحدة منهنَّ ولا تسأل عنك. كلما تذكرتهن أنت، هنَّ ينسينك ويمضين.

كانت أفكاري وأحلامي كلها تدور حول جونول الفتاة ابنة الثامنة عشرة، ذات الشعر المطبّق مثل أزهار تشرين.. وذكريات دفء يدها الصغيرة، التي تركتها في كفي ذات مساء أصفر الظلال، يزداد تأثيرها في أعماقي يوماً بعد يوم. إذ لم أستطع نسيانها بشكل من الأشكال.

هؤلاء الأرذال الذين يُدعون (بني البشر) يزداد تفكيرهم في السجن أولاً. ويصبحون ثرثارين ثانياً..

كنت دائم التفكير، لكني كنت دائم الصمت أيضاً. فتلك الفتاة التي تُدعى جونول، ذات الشعر المطبّق كأزهار تشرين، وذات العينين اللوزيتين، والتي تزداد جمالاً كلّما أسهبت في الكلام، سمعت أنها أصبحت عشيقة لأحب وأقرب صديق إلى قلبي. وأي خلط تستطيع أن تخلطه وأنت في السجن؟ هذا يقال له: الهجوم على رجل مكبَّل اليدين والرجلين.

والإنسان يتعلم شيئاً واحداً فقط في السجن. لكنه يتعلمه جيداً: الشرمطة. وأن أقرب معارفك وأحب أحبائك إليك هو الذي يبدأ بالشرمطة.

هكذا كنت وأنا في الشهر الرابع عشر من سجني.

جاءني يوماً صديق لزيارتي، أدامه الله، وأحضر لي معه عشر علب سكائر.

أشعل السيكارة تلو الأخرى دون إشعال عود ثقاب، وجدّد السيكارة قبل أن تطفئ عقب الأولى، واستغرق بعدها في التفكير، وسحب الدخان تلفّك..

وضعت علب السكائر تحت وسادتي، وكانت العلبة الثالثة أو الرابعة هي التي فتحتها، ففوجئت برسالة في داخلها. كان خطاً منمنماً كاللؤلؤ. فاحت في أنفي فوراً رائحة امرأة، وفهمت قبل أن أقرأ. إذ كان واضحاً جداً أنه خط امرأة.. جاء في الرسالة ما يلي:

«إذا وقعت هذه الرسالة في يد امرأة، أو في يد رجل متزوج، فأرجو أن يمزّقها ويرميها. وإذا وقعت في يد رجل عازب، وأعجب بي، فإني راضية بنصيبي كائناً من كان، ومستعدة للزواج منه، سواء كان غنياً أو فقيراً، شاباً أو مسناً. أرجو من نصيبي أن يكتب إليّ على العنوان المذكور أدناه».

لفّني سعادة غامرة، فصرخت من سعادتي:

- الله يبني عش الطائر الغريب!

فتساءل الأصدقاء:

- ماذا جرى؟

- وهل يمكن أن أخبرهم بما جرى؟ قلت:

- لا شيء!

صفّرت مسروراً، ومشيت، وضحكت حتى المساء، وهم يرددون:

- لقد جرى لك شيء.

فأهزّ كتفي بالنفي. وأتعالى عليهم. إذ كنا في المهجع ثمانية أشخاص. وأنا الوحيد من بينهم الذي وصلته رسالة من فتاة، أوصيت واستحضرت مغلفات وورق رسائل أزرق. وأمضيت ليلة كاملة في كتابة رسائل غرام. وحين أشرقت الشمس كنت قد مزّقت سبع رسائل لم

تعجبني، ووضعت الثامنة ضمن المغلف، كانوا يتضاحكون فيما بينهم، مستهزئين بي وهم يرددون بحسرةٍ وغيرةٍ:

- اللّه يطعمنا!..

جاء الرد بعد خمسة أيام، لكني متّ إلى أن وصل الرد. فأي خيالات لم أتخيلها وأي.. وأي.. تخيلتها فتاة جميلة، تزوجتها بعد أن خرجت من السجن، وصار لنا أولاد، ونحن سعداء بشكل..

كشفت في الرسالة عن اسمها، وأوضحت بعض المعلومات:

«كونسلي.. في الحادية والعشرين من عمرها.. اضطرت للعمل بعد وفاة والدها، وهي تعمل الآن في أحد معامل السكائر في إدارة التبغ، درست حتى الصف الثاني الثانوي. وأكثر من هذا سلامتكم..

سأرسل لكم صورتي.. بعد أن أتلقّى جوابكم، فتنظرون إلى الصورة وتقررون، أضافت».

كتبت هذه المرة رسالة جوابية من ست صفحات.

وبعد مدة، ألا تخرج رسالة زواج أخرى من علبة سكائر أخرى؟

وكنت في ذلك الحين قد قرأت في الجرائد، عن وجود رسائل زواج في علب السكائر. بل وقرأت عن زيجات كثيرة تمّت بهذا الأسلوب. والآن فإن الحظ قد أصابني. وأيُّ حظ؟ إنه حظ مريع.. كانت الدعوة الثانية أشد إغراء. فهذه في التاسعة عشرة من عمرها، وفوق ذلك هي غنية. تملك في قونية أراضٍ وأملاكاً تقدر بمليون. لكن أعمامها استولوا على حصتها من الإرث بعد وفاة والدها. وقد كتبت تقول في الرسالة:

«أفضّل أن يكون زوج المستقبل فقيراً، يكفي أن يفهمني، وأن يسعى لإنقاذ ميراثي».

كنت أحلّق في الجو. والإنسان مهما يكن فإنه مخلوق رضع حليباً نيئاً. فأنا لا أريد التخلي، عن الأولى، ولا عن هذه الثانية. فقد بقيت ثلاثة

أشهر لتخلية سبيلي. وعندما أخرج من السجن، سأتزوج من يميل إليها قلبي من بين هاتين الفتاتين، وحتى ذلك الحين، لن أخيّب آمالهما، وسألهيهما بالرسائل.

عمدت إلى الرسائل أكتبها بأناة. ووردتني صورة من كل منهما، كانت كل واحدة منهما أجمل من الأخرى. إحداهما سمراء لذيذة ناعمة كالفستقة، والثانية بيضاء جميلة مثل ملبسة اللوز.

وصرت عندما آوي إلى فراشي، أضع إحداهما على يميني، والثانية على يساري. وإذا أقبل حظ الإنسان فإنه يُقبل. فبعد مرور فترة من الزمن، ألا أجد رسالة أخرى في علبة سكائر؟ انظر إلى هذا الذي يجري.. ففيما كنت لا أجد واحدة، ظهرت لي الثلاثة فجأة. كانت الثالثة أرملة في الرابعة والعشرين، ووردت صورتها، .. كتبت لثلاثتهن وأفهمتهنَّ بالتفصيل أنني معتقل في قضية سياسية، وأنني الآن في السجن، وجاءني الرد من ثلاثتهن وكأنهن متفقات فيما بينهن:

«إيه.. ماذا أفعل، أنا راضية بك وبكل ما فيك، فأنت نصيبي».

وفيما كنت لا أجد وقتاً لكتابة رسائل للثلاثة، جاءت الرابعة كقطعة قطايف محشوة بالقشطة، وما عاد ممكناً إخفاء الأمر عن الأصدقاء، لأنني كنت أكتب الرسائل بلا انقطاع ليل نهار.

فقالوا:

- أي زير نساء أنت؟ إنهن واقعات في شباكك حتى وأنت في السجن.

إن أشطر الرجل يبدو غريراً في ملاحقة النساء.. أجبتهم ضاحكاً:

- هؤلاء لا شيء.. ولو أردت كتابة رسائل لجميعهن لاحتجت إلى استئجار أربعة أو خمسة كتب.

- اشرح لنا يا أخي، أين لوثت هؤلاء؟

أيمكن أن أقول الحقيقة، وأتكلم عن الرسائل التي خرجت لي من

داخل علب السكائر. هكذا رحت أروي لهم مغامرات غرامية لا يجاريني بها أي كازانوفا أو دون جوان. وفيما كنت أروي لهم مغامراتي، كانوا يستلقون على الأرض من شدّة الضحك، وكان لساني ينطلق أكثر كلما ضحكوا.

لا أعرف كيف مرت الأشهر الثلاثة الأخيرة من مدة سجني، لانشغالي بكتابة رسائل العشق والغرام، وقراءة الرسائل الواردة إلي، وانشغالي بتأليف واختلاق المغامرات الغرامية وحكايات تغريري بتلك الفتيات والنسوة، وقصّ ذلك على الأصدقاء. صرت لا أطيق صبراً كلما اقترب يوم الإفراج عني.

قال الأصدقاء:

- لا بد أنك ستتزوج بإحدى هؤلاء، عندما تخرج من السجن غداً.

- زواج، لا سمح الله! هؤلاء مسألة آنية، للتسلية، والترويح عن النفس، يا أخي.

- كيف أوقعت بتلك الأرملة؟ اشرح ذلك مرة أخرى؟ إكراماً لله!

- يا سيدي تلك الأرملة من عائلة معروفة من عائلات المجتمع الراقي. رأتني ذات ليلة في حفلة راقصة، وتعلقت بي أي تعلق.. صنف النساء هؤلاء، إذا لصقت إحداهن بالمرء يا أخي، من الصعب أن يمسك بها ويرميها عن كاهله.. طُلِّقت من زوجها المليونير بسببي. وبعد ذلك..

عندما أبدأ الحديث كان شرحي يطول ساعات.

- طيب، وتلك الفتاة السمراء، كيف غررت بها؟ اشرح ذلك مرة أخرى؟

كنت أروي المغامرات مرة إثر مرة، وكانوا يأتون من المهاجع الأخرى ليستمعوا إلى المغامرات الغرامية.

كتبت رسائل للفتيات الأربعة، قبل أسبوع من مغادرة السجن، وواعدتهن جميعاً، على اللقاء، بفارق يوم بين موعد كل منهن. الآن سوف أتزوج الأنسب لي.

أقبل يوم الإفراج، وانتصب واقفاً أمامي، فتح أحد الأصدقاء علبة سكائر جديدة، ومدَّ يده بالعلبة إليّ ما إن أخذت منها سيكارة، حتى رأيت ورقة أخرى عليها كتابة يد. دعوة أخرى للزواج، إذا لم آخذ الورقة سيراها الآخرون. وسيتراسلون. هذا لا شيء. لكنهم سيكتشفون قصة رسائلي أيضاً.

وبحذر ودون أن ألفت انتباههم، سحبت الورقة ودسستها في جيبي، لكن أحدهم لمحني، فأمسك بيدي وهو يقول:

- ما هذا يا حسن؟

- لا شيء.

- كيف لا شيء؟ أخرج هذه.

أصروا عليّ، ثم أخيراً تكاثروا عليّ جميعاً وأخرجوا الورقة من جيبي.

- آآآ.. انظر إنها رسالة لك.

أخذت الورقة، وقرأتها:

«حسن بيك

أعلمكم بأني عدلت عن الزواج منكم، لأني صادفت هذا الصباح من هو أكثر بلاهةً منكم، أرجو أن تبحثوا عن نصيبكم في علب سكائر أخرى».

نورتان

يا لأمها! نظرت في وجوه الأصدقاء.. كلهم جادون، حسناً، لكن..

كنت في طريقي للخروج من السجن، وفيما كان الحارس يفتح الباب الخارجي للسجن، صرخ أحد الأصدقاء الذين ازدحموا عند الباب:

- انتظر يا حسن! لك رسالة في علبة السكائر هذه أيضاً.

فتح الحارس باب السجن الخارجي، فخرجت خارجاً، ومن بين قضبان الباب الحديدية قلت لمن في الداخل:

- ولك يا سفلة، ولك يا بلهاء، أتظنون أني لم أكن أعرف أنكم كنتم

تلعبون معي؟ أتظنون أني لم أكن أعرف أنكم كنتم تفتحون العلب، وتضعون الرسائل داخلها، ثم تعيدون إغلاق ولصق العلب؟ يا بلهاء، لقد أخذت الأمر ببساطة وجاريتكم في سذاجتكم، ولهوت معكم لمدة ثلاثة أشهر.

كان منهم من يمسك بخاصرتيه وهو يضحك، ومنهم من يقع على الأرض من شدة الضحك.

الحقيقة، إنهم مزحوا معي مزحة مرتّبة، ولكن ليت كل المزاح هكذا. لقد مضت الأشهر الثلاثة الأخيرة من فترة سجني بسعادة بالغة، التفتُ ثانية إلى الخلف، وصرخت في أصدقائي الذين كانوا ما زالوا يضحكون:

- بوهو و و و.. يا بلهاء!

نادي الأزواج المخدوعين

كانت جدران القاعة الكبيرة للنادي مزدانة برؤوس حيوانات صيد.

وكان أكثر ما يشدُّ الانتباه رؤوس الوعول، والجواميس البرية، وكانت قرون رؤوس الحيوانات الصغيرة والكبيرة المعلّقة على الجدران، مطلية بطلاء برّاق.

فكل من ينال عضوية النادي كان مُلزماً بتقديم هدية من هذا النوع، لتزيين جدران القاعة الكبيرة للنادي. وتحت كل رأس كانت هناك لوحة تحمل اسم صاحب الرأس. وحتى لو لم توجد هذه اللوحات، فإن أعضاء النادي كانوا يعرفون جيداً كل رأس، كما يعرفون جيداً مَنْ منَ الأعضاء صاحبه.

وفي صدر القاعة الكبيرة، خلف المنصة، كان هناك قرن وعل متشعّب إلى شعب وفروع، يغطي الجدار بكامله.

كان سيتم قبول أعضاء جدد في النادي ذلك اليوم، وبحسب النظام الداخلي فإنه يُشترط أن يتم ترشيح المرشح لعضوية النادية من قبل عضوين قديمين، ثم عندما ينعقد المجلس، تتم المصادقة على قبول العضوية، ولم يكن الأمر ينتهي عند هذا الحد. بل يصعد المرشحون إلى المنصة، ويشرحون كيف ولماذا خدعوا فإذا أُعجب الأعضاء واقتنعوا بالأسباب والأساليب، ووجدوا صاحبها لائقاً بعضوية النادي، عندها فقط يُعتبر المرشح حائزاً لعضوية النادي.

دعا رئيس النادي - صاحب أكبر رأس وعل - المرشحين، إلى المنصة، وبعد أن حلّفهم اليمين على قول الحقيقة تحت ظلال قرون الرؤوس المتفرعة، وبعلامة فروعها وشعبها وأغصانها. قال:

- إذا رأى زملاؤنا في النادي الحوادث التي ستروونها حوادث فائقة وغير عادية، سيتم قبول عضويتكم.

كان هذا أشبه باختبار، لأن أعضاء مجلس إدارة النادي، كانت لهم صلاحية توجيه الأسئلة للمرشّحين.

قدّم عضوان قديمان مرشحهما للمستمعين وعرّفاه هكذا:

- نحن مطلّعان على خداع زوجة هذا الزميل له. ثم بدأ المرشح الذي صعد المنصة بالشرح:

دخلت المدرسة الابتدائية بشكل طبيعي في الثامنة من عمري، وبسبب رسوبي سنتين في المرحلة الابتدائية التي تمتد خمس سنوات، أنهيتها في الخامسة عشر من عمري، وبسبب رسوبي سنة أيضاً في المرحلة المتوسطة، فقد انتقلت من المرحلة المتوسطة إلى المرحلة الثانوية في التاسعة عشرة من عمري.

انقطعت عن الدراسة سنة بسبب مرضي، ورسبت سنة أيضاً، ولذلك أنهيت المرحلة الثانوية في الخامسة والعشرين من عمري. فالدراسة الثانوية كانت اثني عشر صفاً في ذلك الزمن. ثم دخلت الجامعة. وبعد سنة تبيّنت أنني أخطأت في اختيار الكلية. فغيّرت الكلية. وبسبب اضطراري للعمل إلى جانب الدراسة، لتأمين معيشتي، استطعت إنهاء دراستي الجامعية في سبع سنوات، وكنت في الثالثة والثلاثين من عمري عندما نلت شهادتي الجامعية. ولكي أكون صاحب اختصاص معينٍ، كان عليّ أن أتخصص لمدة ثلاث سنوات. وفي الثامنة والثلاثين من عمري صرت متخصصاً، بحثت سنة عن عمل، وبعد ثلاث سنوات صرت صاحب عمل. عندما بلغت الثانية

والأربعين من عمري صار لي عمل محترم، أردت الزواج لكني لم أكن في وضع يسمح لي بإعالة زوجتي.. بعد خمس عشرة سنة، أي في السابعة والخمسين توفّر لديَّ مبلغ من المال، يمكّنني من أن أكون صاحب بيتٍ متواضعٍ، أي أستطيع دفع إيجار البيت، وشراء بعض قطع الأثاث، الزواج لم يكن بالأمر السهل. بحثت أربع سنوات عن فتاة تناسبني. أخيراً وعندما بلغت الحادية والستين استطعت العثور على مثل هذه الفتاة. مضت سنة في محاولة استمالة الفتاة إليّ. وبعدها قالت: لنبقَ مخطوبين فترة، ولنتزوج بعد أن يعرف أحدنا الآخر جيداً. وكانت على حق. وبقينا سنتين مخطوبين، وعندما تزوجت كنت في الرابعة والستين.

سأل أحد أعضاء مجلس إدارة النادي:

- كم كان عمر زوجتكم؟

- خمسة وعشرون..

- هل أنتم واثقون من أنها خدعتكم؟

وبدون إعطائه فرصة للإجابة، صاح العضوان المرشحان:

- نحن واثقان!

قال الرجل:

- في هذه الحالة، أرجو أن تشرفوني بقبولي بينكم.

أجابه الرئيس:

- لا يمكن، لا يمكن!؟؟ فهذه الحالة التي شرحتموها تبيّن أنكم زوج مخدوع خداعاً كلاسيكياً عادياً، ليس فيه أي جانب خارق ومثير وغير عادي. مع الأسف لن نستطيع قبول عضويتكم.

وفيما كان الرجل يغادر القاعة متأثّراً، صعد المرشح الثاني إلى المنصة، وبدأ الكلام بقوله:

أيها السادة المحترمون، ليس لديّ أدنى شكٍّ في أن أصدقاء

متخصصين أمثالكم، سوف يدركون فوراً وبمجرد نظرهم في وجهي، أنني زوج مخدوع. فقال أعضاء النادي:

- لقد سمعنا صيتكم وشهرتكم.

أردف الرجل:

- شكراً لكم.. هذا لطف منكم.. أنا بعد أن أنهيت دراستي الابتدائية بالكاد، لم أكمل دراستي لغبائي، ولكن لأنني شاب طويل القامة، عريض المنكبين، أسمر البشرة، بعينين خضراوين.. بمعنى آخر، لأنني شاب أحمل كل المواصفات التي تأخذ بألباب معظم النساء. منذ النظرة الأولى، بدأت كسب قوتي بإرضاء النساء. تدخّل أحد أعضاء مجلس إدارة النادي مقاطعاً الرجل في منتصف كلامه. وقال:

- مفهوم، مفهوم، ثم أصرَّت عليك امرأة جميلة جداً، أن تتزوج بها، فاعتذرت عن الزواج لأنك لا تملك عشر ليرات. فقالت لك: إن حظي مفتوح، وسوف أجلب لك الحظ عندما تتزوج، وتزوجتم، ورغم أنك حصلت على الابتدائية بشقّ النفس، استطاعت زوجتك أن تُعيّنك في مركز مرموق، ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد. فعلى مدى سنوات زواجكم الخمسة، ترفّعت خمس مرات، وأخيراً صرت مديراً للشركة، واستلمت الموقع الذي أنت فيه الآن.

فتسائل الرجل بدهشة:

- من أين عرفتم ذلك؟

- إنه أسلوب دارج من أساليب الخديعة، وهناك الكثيرات من أمثالها لذلك أعرف.

- إذن فقد اقتنعتم بخيانة زوجتي لي، وسوف تضمونني إلى ناديكم.

- نحن صدّقنا أنك زوج مخدوع، ولكن مع الأسف لن نستطيع ضمَّك إلى نادينا، لأن زوجتك خدعتك بأسلوب عادي، يتكرر في كل زمان ومكان.

فيما كان الرجل الذي نزل عن المنصة، يغادر القاعة وهو يكاد يبكي من شدة تأثره، صعد المنصة رجل آخر، وبدأ يشرح:

- كنت قبل عشرين سنة إنساناً معدماً، وكانت لي زوجة.

فقاطعه رئيس النادي قائلاً:

- مفهوم، لا تطيلوا الكلام كثيراً، وفي أحد الأيام ربحتم أموالاً طائلة من عملٍ لا يجوز ذكره هنا، فارتفع مستواكم الاجتماعي. لكن لأن زوجتكم لم تتلاءم مع هذا المستوى انفصلتم عنها. وتزوجتم من امرأة أرقى تناسب مستواكم الاجتماعي، وكانت أرباحكم تزداد ومستواكم الاجتماعي يرتفع باطّراد. ولأن زوجتكم الثانية بقيت بسيطة جداً بالنسبة للمستوى الذي وصلتم إليه، انفصلتم عنها أيضاً. وتزوجتم من امرأةٍ أجمل منها، وأرفع منها علماً وثقافة.

- نعم، نعم.. هذا ما حدث بعينه.

- كنتم تربحون أموالاً طائلة، بحيث صرتم كلما ربحتم أكثر تتزوجون من امرأة أرقى. وهكذا استبدلتم ست أو سبع أو ثماني نساء. ولأنكم لم تجدوا من هي أرقى من زوجتكم الأخيرة، عاشرتم بعض العشيقات أيضاً. بعدها وفي أحد الأيام..

- في أحد الأيام، انقلبت أحوالي رأساً على عقب.

- وعدتم إلى وضعكم القديم، ولأن زوجتكم الأرقى لا تحتمل هذا المستوى الدوني من الحياة..

- نعم.. لهذا بدأت تخونني.. إذن فستقبلونني عضواً في ناديكم.

- لا.. مع الأسف. فأسلوب خداعكم ليس فيه أيّ جديد.. وهو أسلوب معروف جداً.

ومع أن المرشّح الرابع شرح أنه يفضل كون زوجته مخلوقة محبوبة

جداً، فإنه يعيش معها عيشةً مريحة هانئة، منذ خمس عشرة سنة، دون أن يعمل خلالها مدة خمس عشرة دقيقة. إلا أن طلبه قد رفض.

قال المرشح الخامس:

- أنا وزوجتي ممثلا أفلام.

فرد عليه أعضاء مجلس الإدارة:

- يكفي لهذا الحد، مفهوم. ولكن لا تتباهوا كثيراً، فأدوار الممثلين غالباً ما ينجم عنها مثل هذه الأمور التي تحدث كثيراً.

قال المرشح السادس: إنه استطاع أن يحصي لزوجته التي تزوجها منذ سنتين، أكثر من ستين صديقاً للعائلة، وبعد ذلك أضاع الحساب.

لم يُقبل طلب عضوية أيّ من هؤلاء الأزواج الذين تعاقبوا على المنصة، وشرحوا كيف خُدعوا.

أخيراً قال المرشح الطويل العريض الذي بقي للأخير:

- أيها السادة! أنا لم تخدعني زوجتي. لا يمكنها أن تخدعني، لا يمكن لأي امرأة أن تخدعني. فأنتم ترون أني رجل طويل عريض. لست يافعاً، ولست بالهرم. عندي مال، ولي مركزي،وموقعي. فأنا غني، ومثقف. أستطيع أن أرضي وأريح المرأة من كل ناحية. والأمر لا ينتهي عند هذا الحدّ. فلكي أكسر عينها، فإني أختلق أوهى الأسباب والمبررات وأضرب زوجتي وأهرسها هرساً، مرة أو مرتين في الأسبوع.

لا أدعها تتبس ببنت شفة، لا أسمح لها بالخروج إلى الشارع بمفردها مطلقاً، وعندما لا أكون في البيت، أُقفل عليها باب البيت، الصاحبات والصديقات والزميلات ممنوعات على زوجتي. لكني أؤمّن لها كل احتياجاتها، فلدينا عربة، وتسكن في أحسن عمارة، أصحبها معي للنزهة، تلبس ما يحلو لها من الثياب. طبعاً ليست ثياباً فاضحة، فزوجتي تعرف

أنها إذا أرادت أن تخدعني فإني أفرمها فرماً مثل البرانصا. المرأة التي ستخونني وتخدعني لم تولد من أمها بعد.

كان الرجل ينتفخ ويحمر حتى طرف أنفه مثل ديك هندي، وهو يشرح هذه الأمور، فقال له أعضاء مجلس الإدارة:

- ليس هناك أي سبب لخداعكم.

أطرق الرجل الذي كان يصيح ويصرخ منذ هنيهة، وهو يشرح، وخفض رأسه، وهمس بصوتٍ متهالكٍ كسيرٍ:

- وهذا هو سبب شكِّي..

قبلوا الرجل بإجماع الأصوات عضواً في نادي الأزواج المخدوعين.

علبة دبابيس

زوجتي الخامسة؟ الحقيقة، أنها كانت امرأة كاملة، سيدة بيت ذكية جداً.. كانت تجهّز المائدة بألوان وأصناف الطعام، وترتّبها بحيث تصبح لوحة فنية. خفيفة اليد، سريعة الحركة، مليئة بالحيوية.. تُتقن فنّ الخياطة والتطريز، وكل شيء، فهي خياطة من الطراز الأول. وفوق كل ذلك فهي مقتصدة مدبّرة، بحيث كنا نعيش كلانا مثل الورد بمبلغ أقل مما كنت أصرفه لوحدي في حياة العزوبية.

نعم، أعرف أن الحياة صعبة مع زوجة كل ما تمتاز به أنها سيدة بيت فقط لكنها لم تكن سيدة بيت فقط، بل كانت سيدة مثقفة. وكان صدري ينتفخ زهواً وفخراً، عندما تتكلّم في اجتماعٍ، أو في مجتمعٍ.

أعرف ما يخطر ببالكم، إنكم تقولون من يدري كم كانت ناحلة العود، لا، أنتم مخطئون، فقد كانت جميلة، ووفية، لم تخنّي، إذ كانت مرتبطة بي، وببيتها كثيراً، لماذا انفصلنا إذن، طالما هي كذلك؟ لكي تفهموا ذلك، علي أن أشرح لكم أولاً كيف تزوجت منها.

كنت مدعواً لتناول العشاء في منزل أحد أصدقائي، وعندما وصلت البيت كانت الصالة مزدحمة بالضيوف الذين جاؤوا قبلي، حييتُ من أعرفهم، وتعرّفت على من لا أعرفهم. ولسببٍ ما، كان الجوّ رسمياً جداً وبارداً. فتشت بنظراتي عن مكان للجلوس، وجلست على كنبة فارغة في

إحدى الزوايا، وصار جلوسي وقفزي في الهواء في لحظةٍ واحدة، قفزت في الهواء من شدّة ألمي قفزة كاد رأسي يضرب السقف من جرائها، وصرخت:

- هذا ليس مزاحاً، هذه سفالة!

- جمد الضيوف في أماكنهم للوهلة الأولى نتيجة صراخي، وهم لا يعرفون ماذا جرى، ثم لم يتمالكوا أنفسهم وراحوا يقهقهون عندما رأوني أضع يدي خلفي بوجه عابس متألّم وأحاول نزع الإبرة التي انغرزت في عجيزتي ووصلت حتى عظامي. كان الجو الثقيل قد خفّ وطرّته القهقهات، أما أنا فكنت أتصبّب عرقاً من شدة ألمي. فصرخت فيهم:

- أنا هنا مشغول بروحي، وأنتم واقفون أمامي تضحكون؟

لكن حدّتي هذه لم تنفع في شيء، سوى في إضحاك أولئك أكثر وأكثر.

في تلك اللحظة اقتربت مني فتاة شابة ذات وجه ملائكي، وهمست بصوتٍ خجولٍ مرتجف:

- عفواً، آسفة جداً فالذنب ذنبي..

لم أفهم ما قصدته، ولكن لا يمكن لفتاة بهذا الجمال أن تكون مذنبة.

- تفضلوا إلى الغرفة الداخلية لأنزعها.

ضغطت على أسناني، ووضعت إحدى يدي خلفي مكان انغراز الإبرة، وفيما كنت أعرج محاولاً الوصول إلى الغرفة التي أشارت إليها الفتاة. كان الضيوف ما يزالون يضحكون مقهقهين.

قالت الفتاة الجميلة:

- لطفاً، استلقوا هنا!

استلقيت على بطني، فوق أريكة عريضة، وما كنت قادراً على فعل شيءٍ. سوى أنني كنت أئن ألماً، هي التي فعلت كل شيء بيدها. حلّت حزام بنطالي أولاً، ثم سحبت البنطال عن ساقي، ومن شدّة ألمي لم أكن في حالة

أخجل فيها، بل كنت مستسلماً بين يديها. ولأنها لم تجد مكان انغراز الإبرة، اضطرت إلى تعريتي أكثر قليلاً. بعدها ومع انتزاع الإبرة من عجيزتي تنفست الصعداء، وأنا أقول:

- أوه. إذن هناك دنيا!

ثم سألتها:

- كيف استطعتم انتزاعها؟

- كانت إبرة خياطة، وكنت قد ضممت فيها خيطاً، ومع شدّ الخيط نزعتها بسهولة.

الحقيقة أنها لم تعمل على إغرائي، بل كانت تشرح لي الأمور من أعماقها، فانتزاع إبرة خياطة منغرزة في جسم إنسان لا يكون بهذه السهولة دائماً. لأن إبرة الخياطة إذا ما انغرزت فإنها تنزلق ككائنٍ حيٍّ، وتظل تدور في جسم الإنسان. وأن هناك إبرتي خياطة تدوران في جسم أمها، وإبرة تدور في جسم أبيها، وأنها صارت تتصرف بحذرٍ شديدٍ بعد هذه الحوادث. فما عادت تترك هنا وهناك إبر خياطة لا خيوط لها. لأن انتزاع إبرة في طرفها خيط يصبح سهلاً.

أفهمتني الفتاة كل هذه الأمور بصدقٍ ومن صميم أعماقها، ومع ذلك فأنا لم أدرك، وهل قالوا عن عبث: أن العشق أعمى.

لا أعرف كم من الزمن بقينا في تلك الغرفة، لكن إذا أوضحت لكم هذا، فستفهمون كل شيء، عندما خرجنا من الغرفة أعلنّا للموجودين في الصالة خطوبتنا.

وتزوجنا بعد فترةٍ قصيرة، ولأننا لا نملك مالاً لقضاء شهر العسل، قررنا قضاء ثلاثة أيام عسل في أحد الفنادق الجيدة.

لا أعرف كيف سأشرح لكم تلك الحادثة - مع شديد المعذرة منكم - كانت أول ليلة لنا في الفندق دخلنا فيها الفراش للتو، وإذ بباب غرفتنا

يطرق فجأة من الخارج طرقات شديدة، لأني كنت قد صرخت بكل ما أوتيت من قوة، صرخة ألم مدوية من انغراز إبرة داخل الفراش في فخذي.. ولظن العاملين في الفندق أن جريمة قد وقعت، فقد تجمهروا عند باب غرفتنا، نعم لقد كانت مصيبةً حقيقيةً وقعت على رأسي. تخيّلوا أن تمضوا فترة طويلة من الزمن وأنتم تتحرقون شوقاً بانتظار ليلة اللقاء تلك، تخلعون ملابسكم وتدخلون الفراش، وتأتي زوجتكم الحبيبة برداء النوم الشفاف وترتمي في أحضانكم، وما أن تلتفوا ببعض باهتياج كبير، حتى تُجرحوا، وهذه المرة ليس في عجيزتكم بل في مركز الحيوية، إذ تدخل إبرة، لا، لا تدخل، بل تنغرز إبرة في صدركم، وتصل حتى عظام القفص الصدري.. وبصعوبة بالغة أقنعنا العاملين المتجمهرين عند الباب أن صرختي تلك كانت مزحة ليلة العرس، وصرفناهم من هناك.

صارت أيام العسل الثلاثة سماً بالنسبة لي ففي أي لحظة تلمس فيها يدي أي مكان من جسم زوجتي، لا بدَّ أن تخزّ يدي إبرة، حتى في الأماكن المستحيلة وغير المعقولة من جسم زوجتي كانت توجد دبابيس، هكذا، اتركوا الضمّ واللفّ على طرف، صرت أخاف من مجرد ملامسة زوجتي، إذ رضيت أن تخزّ دبابيسها يدي، لكن انغراز الدبابيس في أماكن أخرى من جسمي كان أشد إيلاماً بكثير.

عدنا من الفندق إلى منزلنا.

وفي أول صباح أغادر فيه بيتنا الجديد إلى عملي، وفيما أنا خارج من الباب سألتها علّها تطلب بعض الحاجيات للطعام:

– ماذا أجلب معي عند المساء؟

فأجابتني فوراً بلا تلكؤ:

– اجلب علبتين ثلاث علب دبابيس، وعلبة علبتين إبر خياطة.

وفي الصباح التالي وفيما أنا ذاهب إلى عملي طلبت مني إبر آلة

خياطة، وفي الصباح الذي يليه طلبت دبابيس برؤوس، كانت الصباحات التي تودّعني فيها إلى عملي ولا توصيني أن أجلب لها إبراً، صباحات نادرة جداً، إبر ملاحف، مخارز، إبر خياطة، إبر آلة خياطة، دبابيس ذات رؤوس، دبابيس ذات رؤوس كروية، دبابيس بأقفال، دبابيس قبات، دبابيس برؤوس ملونة، دبابيس زينة. وغيره وغيره مما يُعرف وما لا يُعرف من أنواع الإبر والدبابيس، ومن كل حجم ومن كل قياس كانت تطلب. وفي أحد الصباحات، ولكي لا أنسى وأُحضر لها إبراً غير التي طلبتها، كانت تضع في يدي ورقة مكتوبة أثناء خروجي من باب البيت: علبة دبابيس صغيرة برؤوس كروية، وعلبة إبر خياطة من القياس الوسط.

وفي أحد الصباحات عندما أوصتني على إبر قائلة:

- لم يبقَ في البيت إبر أبداً..

سألتها:

- خروفي، ماذا تفعلين بكل هذه الإبر؟

بدت مدهوشة جداً لسؤالي هذا وهي تُحييني:

- ولو، هذه إبر، ماذا يُفعل بالإبر.. الإبر أهم حاجيات البيت.

ثم راحت تتعالى علي قائلة:

- أتظن أن هذا البيت قائم على ما تجلبه أنت من إبر! لو لم أشتر أنا، أيمكن أن يكفي ما تجلبه أنت أبداً؟

صحيح، لا يكفي، فاحتياج البيت للإبر كان بلا نهاية، كنت في البيت في أحد أيام الآحاد. كنت جالساً أقرأ جريدة، وكانت زوجتي قبالتي تخيط، ولما رفعت رأسي وحانت مني التفاتة نحو زوجتي، أُصبت بالدهشة، لأن زوجتي قذفت في فمها ملء حفنتها من الدبابيس، كنت أقرأ في الصحف، بين الفينة والفينة أخباراً عن أُناس تُجرى لهم عمليات جراحية وتُستخرج من معدهم وبطونهم إبر، أو مسامير، أو مفاتيح، أو شوكة، أو ملعقة. إذن

فزوجتي مثل أولئك، مريضة نفسياً ببلع الدبابيس. أخّذّت زوجتي التي لم تنتبه لنظري إليها، حفنة أخرى من الدبابيس وقذفتها في فمها. ورحت أنظر إليها بشغف وفضولٍ لأرى كيف ستبلع الدبابيس، وكيف ستمر الدبابيس عبر رقبتها الجميلة تلك. لكن زوجتي لم تبلع الدبابيس التي في فمها. بل راحت تُخرجها من فمها واحدة تلو الأخرى، وتغرزها في قطعة القماش التي كانت تخيطها. إذن فهي كانت تستعمل فمها كعلبة دبابيس.

ولما شرحت الذي يجري، لبعض أصدقائي المتزوجين، علمت أن أغلبهم يعانون من المشكلة ذاتها، لكنهم لا يتكلمون عنها باعتبارها سراً عائلياً. زوجات أولئك أيضاً كنّ مثل زوجتي يستعملن الدبابيس بدلاً عن الأزرار، وبدلاً عن الكبسول، وبدلاً عن المطاط، والحزام، والمشبك، والحمّالة، والصمغ والرباط، والنشاء وبدلاً عن كل أنواع اللصق أو الربط، وبدلاً عن أشياء وأشياء أخرى كثيرة أيضاً، إذن لم أكن أنا الزوج الوحيد الذي احترق قلبه من الدبابيس، أحد أصدقائي لم يحضن زوجته ويضمها إليه ولو مرة منذ أكثر من عشرة سنوات، لأنه كلّما كان يتهيّج وينفعل ويحاول القيام بإظهار حبه لزوجته، كنت عدة دبابيس تنغرز في عدة أماكن من جسمه دفعة واحدة، فيسقط على الأرض مولولاً، وغالباً ما كان يفقد كثيراً من الدم.

كما أخبرني صديق آخر أيضاً أنه لم يندس في حضن زوجته منذ عدة أعوام، خوفاً من الدبابيس.

لم تكن زوجتي تستعمل الدبابيس في ملابسها، وفي ثيابها الداخلية فقط، بل وتستعملها في ملابسي وفي ثيابي الداخلية أيضاً، فكلما انقطع زر تثبت مكان الزر دبوساً، حتى زر السترة لا تخيطه إن انقطع، بل تثبّته إلى قماش السترة بدبوس، فإن لاحظت أن مطاط سروالي الداخلي قد ارتخى، أو أنه على وشك أن ينقطع، فإنها تعمد فوراً إلى تضييق خصر السروال بدبوس بمشبك. كذلك كانت ثيابها الداخلية هي أيضاً هكذا، ففي سروالها، وفي

قميصها، وفي مشبك جوربها، وفي حمالة صدرها، وفي مشدّها، وفي كل شيء فيها، كانت هناك أشكال وأنواع من الدبابيس، بمشبك وبدون مشبك، بكرة وبدون كرة، برأس وبدون رأس، بثقب وبدون ثقب، حتى بتُّ أشكُّ في أن زوجتي كانت تعمد إلى قطع أزرارها وحل مطاطاتها قصداً، فقط لكي تستعمل دبابيسها، حتى صارت حمالة صدرها الجميل، أشبه بوسادة دبابيس.

امتلأت كل أنحاء جسمي بالثقوب، وصرت عندما أصل إلى المنزل، تلفني رهبة الدبابيس منذ لحظة دخولي من الباب. إذ كانت الدبابيس تنغرز في قدمي رغم حذري وحرصي الشديدين على عدم انغرازها، إذ حتى شحاطاتي كانت ملأى بالدبابيس، وكانت تتساقط من داخلها حفنة من الدبابيس عندما كنت أهزها قبل أن أدس قدمي فيها.

أينما مددت يدي دبابيس، وأينما وضعت قدمي دبابيس، وأينما جلست دبابيس، وفي فراشي دبابيس. أيُعقل وجود دبابيس في طبق الطعام؟ هذا هراء بالنسبة لكم، لكنه حقيقة واقعة بالنسبة لي. إذ كانت توجد دبابيس في صحن الحساء، وفي طبق الطعام، وكان بعضها يخرج من الطعام، لأن الدبابيس كانت تتساقط من كل أنحاء جسم زوجتي أثناء مشيها. ما لم تمروا بمثل هذا، فستظنون أني أبالغ.

نحن لم يكن يزورنا ضيوف تقريباً، فإذا صادف وزارنا في السنة أحدهم بالخطأ، أو عن عدم معرفة، فإنه لم يكن يبقى في جسمه مكان لم تخزّه الدبابيس.

أتسألون كيف كانت تنظّف البيت؟ كانت لدى زوجتي قطعة مغناطيسية ضخمة على شكل U وكانت تدور بهذه القطعة في أرجاء المنزل. فتلّم الدبابيس من الأرض ومن هنا وهناك عناقيد عناقيد.. ماذا يفيد اللمّ طالما أنها ستبعثرها من جديد؟..

في منتصف إحدى الليالي، رحت أتلوّى من آلامٍ لا تُطاق في معدتي، وعند الصباح نُقلت إلى المشفى بسيارة إسعاف، وأظهرت الصور الشعاعية أن معدتي ملأى بالدبابيس، ليست معدتي فقط، بل كانت هناك دبابيس في أماكن أخرى من جسمي أيضاً، هل أنا بلعت هذه الدبابيس فعلاً؟ أم أن الدبابيس انغرزت في شتى أنحاء جسمي، قد تحركت ودخلت إلى جوفي؟ هذا ما لا أعرفه.

وفي اليوم الذي قرر فيه الأطباء إجراء عملية جراحية لي، جاءت زوجتي الحبيبة إلى المشفى لزيارتي، فمالت علي وقالت:

- سيكون لنا ولد يا حبيبي.

أطلقت فجأة صرخة مدوية، تراكضت على إثرها الممرضات وأسرعن نحوي، لم تكن صرختي نابعة من فرحتي لأني سأصير أباً، وإنما كانت من وخز وجهي بالدبابيس التي تملأ صدر زوجتي.

لو ولدت زوجتي، فإنها لن تلد طفلاً، ربما تستطيع أن تلد وسادة دبابيس، لكن حتى هذه لم تستطع أن تلدها، ولم يفهم بشكل من الأشكال لماذا لم تلد.

برأيي أن الطفل قد علق وثبت، في مكان ما من أحشاء زوجتي، بالدبابيس التي تملأ أحشاءها.

ولما لم تستطع الولادة، صار ضرورياً أن تجرى لها عملية جراحية لا أعرف النتيجة، لأننا طلقنا.

مضت سنوات على ذلك، ولكن ما زال في داخلي ألمٌ ما، أهو بسبب حبي الشديد لزوجتي؟ أم هو ألم الدبابيس التي ما زالت تخرج مندفعة من فمي، واحدةً تلو الأخرى، كلما سعلت أو عطست؟ هذا ما لا أعرفه.

فهرس

صدر للمترجم

فاروق مصطفى عن اللغة التركية

1- القميص الناري «رواية» خالدة أديب.

2- كيف ينقلب كرسي؟ «مجموعة قصصية» عزيز نسن.

أعمال قيد الإنجاز:

1- إسكان العشائر في عهد الإمبراطورية العثمانية - البروفسور الدكتور جنكيز أورهونلو.

2- الأوغوز (التركمان) تاريخهم - تشكيلاتهم القبلية - ملاحمهم - البروفسور الدكتور فاروق سومر.

3- تاريخ السلاجقة والحضارة التركية الإسلامية - البروفسور الدكتور عثمان طوران.

4- غريب «رواية» يعقوب قدري قره عثمان أوغلو.

أي حــزب سيفوز

في إحدى مقابلاته، وفي سياق السؤال عن الهدف الذي يضعه نصب عينيه إذ يجلس للكتابة يقول: "إنني أفكر دائماً في بلدي، وأحاول أن أجعل كتابتي طوبوغرافيا اجتماعية للشعب التركي".

من قبل أطلق بلزاك على نفسه لقب "سكرتير المجتمع الفرنسي" فكان سكرتيراً أميناً لهذا المجتمع، فقدّمه، مثله، وتمثّله، كما لم يتمكن الاقتصادي، والسوسيولوجي، والسياسي، حسب انطباعات انجلز، فقدم بلزاك سفراً مطرزاً بآلام المخاض لمجتمع فرنسي في طور تخلقه الجديد كمجتمع حديث، وأطلق على هذا السفر "الكوميديا الإنسانية".

رغم التهجم، المبضع الذي يغوص في الجرح، والعيون الصقرية التي تنفذ عميقاً تحت السطح، لبلوغ مخابئ شيطانية الواقع وخبثه الذي ينتج كل هذه البشاعة، رغم كل هذه الفضاءات المأساوية، فإن بلزاك يرسمها بوصفها "ملهاة". فحسم بذلك الجدل والسجال، حول حدود الملهاة والمأساة، منذ مأدبة أفلاطون، ومحاجة سقراط "بأن الفنان الحق في المأساة، فنان في الملهاة أيضاً".

ليخلص أبرز نقاد العصر الحديث نورثروب فراي "إلى أن الخط الفاصل بين الملهاة والمأساة نحيل إلى حد أن المأساة ملهاة ضمنية أو غير تامة" وأن المأساة "حادثة في النهج العريض للفناء والبعث منحها دانتي اسم الكوميديا".

الدكتور عبد الرزاق عيد

نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com
سورية - اللاذقية
للدراسات والنشر والتوزيع

علم المعرفة
الحلبي حزب سيفوز
5 A رواية
S.P250
154136
علي مولا